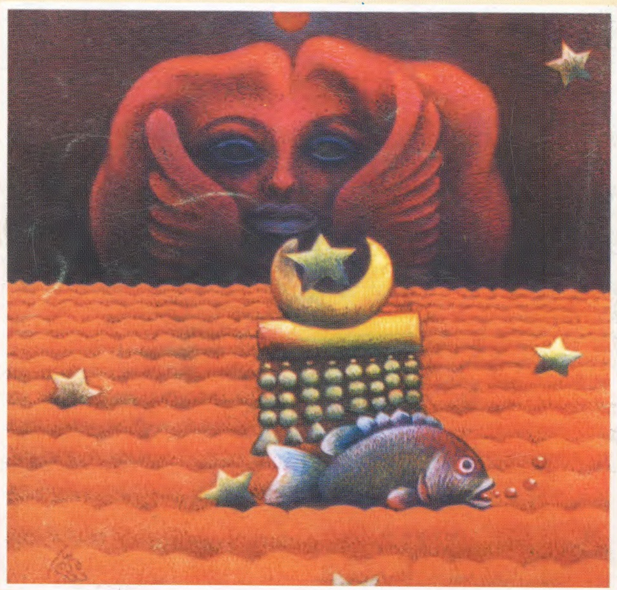
روايات الهلال

فؤاد قنديل



أبقي الباب مفتوحا

الغلاف للفنان
محمد حجى

أبقى الباب مفتوحا

بقلم
فؤاد قنديل

●

دار الهلال

العدد ٦٧٦ - أبريل ٢٠٠٥ - ربيع أول ١٤٢٦

روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمى
تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

سكرتير التحرير
محمد رضوان

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس - الكويت ١,٢٥٠ فلس - السعودية ١٢ ريالا - البحرين ١,٢ دينار - قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهماً - سلطنة عمان ١,٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٢,٥ دولار - سويسرا ٤ فرنكات ..

الاصدار الأول
يناير ١٩٤٩

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج. م. ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولارا

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

عنوان البريد الإلكترونى :
darhilal@idsc. gov . eg

الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات: ص. ب: ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج. م. ع.

تلكس :
Telex 92703 hilal u n

فاكس :
FAX 3625469

(١)

لم تكن الظلمة فى هذه الليلة بالذات مجرد عباءة أو خيمة ، لكنها وحش مستبد ومهيمن فوق فريسته ، لا يترك لها فرصة لأدنى حركة ، اللهم إلا ما يكفى للأنفاس كى تخرج وتدخل لتبقيها على قيد الحياة .

هذه الليلة بالذات كانت الظلمة ، كيانا فاحم الأعماق هائل الضخامة شاسع الامتداد ، لا تكاد تبين له أطراف تحدد بدايته ونهايته .

لم يكن عسيرا على هذه الظلمة الغاشمة أن تسمع الأدعية والمكالمات السرية التى تتسرب إلى النجوم كى تبذل جهدها لتلقى شظايا ضوءها على الأرض بعد أن غاب القمر .

أخلصت النجوم فى الاستجابة لصرخات الكائنات التى قدر لها أن تسكن الأرض ، لكن الظلمة حالت دون ذلك وجعلت من ضوء النجوم ذرات من غبار ، وبدت أنوارها كآثار العثة عندما تمر بثوب فتصيبه كما تصيب النملة الجبل الشاهق .

لم تكن الظلمة الثقيلة تعلم شيئا ولا يجب أن تدعى أنها تعلم بخبر الهياج الذى أصاب السماء ، فعلا صراخها وتكرر اهتزازها وتوالى رعدها المزلزل الذى أخذت تتمخض بعده عن سيول هائلة من المياه الفوارة، اندفعت فوق سلسلة الجبال الشمالية ، وكادت تجرفها معها من فرط العنفوان الكاسح .

انطلقت المياه فوق الجبال متجهة نحو السفوح فى عجلة عمياء ، تبحث

عن مجاريها ، وإذا لم تجد غاصت وحفرت .. بدا واضحا أن الأوامر قد صدرت إليها بألا تتوقف مهما جرى .. ومهما تلاقيه من صخور وعقبات .. كل شئ تدفعه المياه التى تزداد سماكة وكثافة كلما التهمت أكداس الرمال وسحقت الأحجار .

أمواج المياه تعلو وتتلاطم ، تزداد قوة وغضبا وحيوية، تواصل الاندفاع .. لا تخفى فرحها وهى تثبت ذاتها بهذا الاجتياح الذى يقوى غرف القلب ، لا تعبأ بالأشجار والأنهار الصغيرة والقنوات .

تدربت على ابتلاع خطوط السكك الحديدية ، والإسفلت ، وتوجهت بجنون ولهفة نحو أكبر مدينة فى المنطقة وهى العامرة بالسكان والبيوت ، والمدارس والمساجد والكنائس والمستشفيات والمصانع .. مدينة تمتد فى المسافة الفاصلة بين الجبل والنهر .. عرضها عشرة كيلو مترات وطولها يتجاوز العشرين .. شاء حظها أن تكون تحت أقدام الجبل وعلى بعد عدة كيلو مترات من سفحه ..

لم تقم المياه وزنا لمبنى مديرية الأمن ولا لمقر المحافظة أو مجلس المدينة ومقر الحزب ولا مباحث أمن الدولة ، وكلها مبان توفرت لها الحراسة المشددة ليل نهار ، وتحيط بها العربات المصفحة ، ملتصقة بأسوارها وبواباتها الحديدية لحمايتها من المظاهرات .

كان على المياه أن تمر خلال كل ذلك فقد بدا أنها تحمل رسائل عاجلة من الجبل إلى النهر .. خاضت فى الشوارع والحقول واجتازت المعسكرات والمخازن والمطاعم ، اكتسحت تماما كل الأكواخ والبيوت الطينية ولم تبق شيئا فى موضعه .. بدت الطبيعة غاضبة جدا بسبب حدث ما لا يعلمه إلا الله .. ها هى السماء لا تزال ترعد وترتج ..

هل هو حقا غضب أم مخاض ؟! .. حروب دامية أم مجرد قلاقل وصراعات محدودة .. ثورة أم تأوهات ألم ..

هذا الرعد وذلك البرق.. تراه طلقات مدافع وانفجارات قنابل ، أم تجارب لأسلحة الدمار الشامل ؟ .

لا مفر من اعتبار المسألة أكبر من التقدير والتوقع بدليل هذه الظلمة الشديدة .... لا داعي للتغافل أو التجاهل .. التواطؤ واضح ..

المشكلة ليست في كل ذلك .. المشكلة الآن تتمثل في الشاب الموشك على الضياع .. بل هو حتما ضائع .. نادر أبو النجا الذي كان ينام فوق المصطبة أمام داره على مرتبة إسفنج مغطاة بمشمع وردي من البلاستيك ، ويلتحف ببطانية جديدة ، يتمدد عليها نمر يكشر عن أنيابه ويستعرض أظلافه وشراسته ..

فوجئ النمر المرسوم على البطانية بالسيول الجارفة . لم يستطع أن يفعل شيئا .. لم تسمح المياه التي اندفعت نحو المرتبة وحملتها بمنتهى البساطة ولا لصاحبها أن يفعلا شيئا ، بل إنهما لم يحسا بها ، وظل النمر مطروحا فوق بدن نادر أبو النجا المستغرق في النوم، مكورا في دفء البطانية، مشمولا برعاية النمر المتأهب للانقضاض في كل لحظة ودون سبب.

أسرعت المياه بالمرتبة نحو النهر الكبير وهي ترى المدى متسعا والمجرى خاليا من أي عقبات يمكن أن يزعج الارتطام بها حماس الانطلاق المرعب ..

كانت دار نادر في الطرف الشرقي للمدينة ، قريبا من النهر ، والمسافة لا تزيد على كيلو مترين . بعيدة نسبيا عن قلبها العامر بالحركة والصخب والأسواق والعمران .

لم تتمكن السيول من أن تختطف الكثير من أهل المدينة وممتلكاتها لكثرة الدروب المتداخلة والشوارع المتقاطعة ، والمباني العالية التي حالت دون انسيابية الانطلاق إلا في الأطراف ..

لم يكن نائما خارج بيته فى هذه الظلمة والبرودة الثلجية غير نادر الذى التزم بتنفيذ ما صدر إليه من أوامر ، اعتاد ذلك منذ كان بالجيش ، وهو الآن لقمة طرية وسائغة فى فم المياه الفسيح ..

منتصف الليل مضى منذ نحو ساعتين ، المياه تنطلق فى مجرى النهر ، تعانقها الضفاف وتكاد تجرى معها . الأشجار على الضفاف يبلغ مسامعها خرير المياه العالى ، مارا على قطيفة الصمت المسائى الناعس ، تدهش وهى تحاول بنظرتها الكليلة أن تحدق فى المياه ، والعتمة محدقة .. ما بالها تمر من تحتها مسرعة على هذا النحو الغريب .. لابد فى الأمر جرم . حتى الظلمة كانت تتساءل عما يحاولون تهريبه تحت أستارها .

لم تشرق الشمس أخيرا إلا بعد أن أصبحت المرتبة وحمولتها سواء الجسد الإنسانى لنادر أو الجسد الحيوانى المطبوع على البطانية لنمر فائق الشراسة، على بعد مئات الكيلو مترات من مصطبة عم شاكر أبو النجا، حيث كان الثلاثة ، ومازالوا برغم تغير الزمان والمكان غرقى فى بئر السبات العميق ..

الطرد المحمول على جناح الماء ليس أكثر من ريشة فى يد القدر تدفعها إلى بقعة مجهولة من الأرض ، وربما تحت الأرض .. لا أحد يعلم .. الإيقاع مجنون ومشبوه ..

الرجل مندفع دون إرادته كطلقة مقذوفة من بندقية كونية لا يظهر إلا زيتها الذى يسيل بغزارة قادما من فوق الجبال متجها إلى آخر الأنهار ..

اشتاقت السماء إلى البحر فأسقطت أشواقها ماء فوق الجبال، وأوحت إليها أن تركب النهر نحو البحر ، أخفت السماء عشقها فى الظلمة .. لم تكن تعلم أن أى شئ على الأرض يهفو للبحر ويمضى إليه حتى الأمنيات الجميلة .. ومن لا يسلم نفسه للبحر تقذفه الأقدار إليه .. هل

بوصفه بؤرة جذب ومحطة أخيرة للقاء ؟ أم بوصفه معسكرا لتجميع الكائنات ؟ أم تراه مطحنة المستعمل والخردة .. الأرجح أنه المنفذ السفلى الوحيد لمغادرة الأرض إلى الكواكب الأخرى .. فإلى أى نوع ينتسب نادر أبو النجا ؟

ليس قبل الظهر فتح عينيه ، ربما لأنه نام تلك الليلة متأخرا على غير العادة ، لقد قضى عدة ليال سابقة مؤرقا مهموما ، إلى أن زار الشيخ ضاحي واعترف له بكل شئ ، ووعده نادر أن ينفذ أوامره بمنتهى الدقة، لعلها تفيده وتخلصه من موقفه الحرج ..

عندما رأى الشمس والسماء والنور الفادح ، والأفق ساحة بيضاء فسيحة ، تذكر أنه لأول مرة في حياته ينام هذه النومة الغريبة أمام الدار وفي الشارع العام ، ولعل الناس الآن تراه وتدهش لحاله .. كان آخر كلام قاله لزوجته سهاد : أبقى الباب مفتوحا لعلى عند الفجر أدخل لأنام فى الفراش .. الجو فيما يبدو سيكون مائلا للبرودة ..

ساعده على عينيه يحميهما من نور الشمس ، وعندما تسلل الوعى كاملا لرأسه ، حملت إليه أذناه صوت خرير المياه واندفاعها ، كما أحس الهواء البارد يضرب رأسه .. نهض على مرفقيه ، فإذا النهر الكبير يحتضنه وحقول الماء تتقلب حوله ، حريصة على أن تحتفظ به في منتصف النهر .. المرتبة فوق ظهر قطار الماء ثابتة ومستقرة تجرى بحمولتها فى حماس وإخلاص ..

أغمض عينيه .. فقد كان المشهد لا يعنى شيئا إلا انفجار رأسه بالأسئلة وأن تبتلع روحه كل بحار الدهشة ..

يرسل نظراته المفزعة إلى ضفاف النهر البعيدة ، يرى عليها الأشجار تجرى فى عكس اتجاه المياه .. النهر يتسع والضفاف تبتعد والخوف يقترب ، بينما العقل تفتت إلى شظايا لا تستطيع أى قوة أن تجمعها معا .. ليبدأ

التفكير فى الورطة وسبل الخروج منها ..

لم يأت وقت الفعل بعد وهو لا يزال فى حال الدهشة .. هذه الحال كثيرا ما تطول هذه الأيام .. تطول وتمتد وتجر معها حال العجز ، وحال العجز تجر معها حال انعدام الإحساس .. والأخيرة تفضى إلى حال يفتقد المرء فيها التركيز ويتعذر تحديد حجم الحدث خاصة عندما يكون بهذا الحجم بينما الإنسان بالحجم المعروف .. ولن ينفعه أن يكون مثل نادر أحد أبطال الكونغ فو .

أخيرا ذابت مساحة صغيرة فى جبال الدهشة واستطاعت أعمق قيعان عقله أن تتساءل :

– ليس هكذا تمضى الأنهار ، وهذه المياه لا تبدو كمياه النهر .. إنها مياه فوقها مياه .. مختلفة .. نعم مختلفة ، فيها البنى والأحمر ، ومن بينها الأخضر والأصفر ، وعندما تتقلب أحيانا يظهر البرتقالى ثم الليمونى والأصفر فالبنى .. عفية جدا .. اندفاعها مريب ، كأنها تريد أن تنقذ عزيزا من الموت ..

تحسنت الرؤية قليلا ، فقال :

– الله يخرب بيتك يا شيخ ضاحى .

تنهد وتلفت ، وبعد أن نضج الوعى كثيرا أوشك أن يغشى عليه .. ثم هز رأسه وقال :

– لا حول ولا قوة إلا بالله .

ابتلع ريقه وهو يحس بمنتهى العجز ، يدهش لثبات المرتبة برغم السرعة المذهلة للماء .. أزاح البطانية واضطر أن يعجن النمر الذى لم يفعل شيئا حتى للفت نظره . كان وجهه عكس اتجاه الماء فاعتدل وجلس يحدق بكامل وعيه، ويواصل الدهشة من فرط البراعة الهندسية التى يتميز بها الماء ، فالمسافة الفاصلة بينه والضفة اليمنى بالضبط مثل المسافة التى تفصله عن

اليسرى ، كأن القدر رسم على الماء خطا ألزم المرتبة ألا تنحرف عنه سنتيمترا واحدا نحو أى جهة .

– شئ غريب وعجيب .. متى حدث هذا ؟ ..

نفى أن يكون حلما .. شئ ما لم يلفت الانتباه إلى أن أمطارا ستهطل وأن سيولا ستجرفه ومرتبته من أمام داره دون أن يحس أهله .. لم يستشعروا أن السماء توشك على الإمطار ، كانوا نياما محملين بالآمال فى أن تتحسن أحوال ولدهم الحبيب نادر .

كان هو غارقا فى حلمه اللذيذ .. طوال الليل منذ ترك زوجته، يشاركها الفراش وتدفعهما الشهوة بجنون فيندفعان إلى النهل من معين اللذة . لم يتوقف نادر لحظة عن قضم لحمها الطرى وتتوق رحيق شهوتها العارم .. دام العناق والإيلاج بتوفيق بالغ ، دفع إلى مواصلة التجربة إلى ما لا نهاية .. رفضا أن يتوقفا حتى عندما طلع النهار .. قررا ألا يتوقفا حتى لو حطم الأهل الباب للمباركة فى الصباحية .

– أنت السبب فى هذه المصيبة يا شيخ ضاحى .. أنت من نصحنى بأن أنام هذه النومة اللعينة . الله يلعنك فى كل كتاب . منذ البداية لم أكن مقتنعا بالشورى الغبراء . أنت أفاق ومثلك من أشار علينا بك .

كان الشيخ ضاحى قد وصف له وصفة بلدية كى يستطيع أن يغشى عروسه ، مضى أسبوعان ولا نتيجة .. أصابته الصدمة بالذهول خاصة أنه رياضى متمرس .. قوى البنية مفتول العضل ..

لمح الحجاب المثلث المتدلي من رقبته .. تصور أنه فى موضعه هذا منذ آلاف السنين .. هم بانتزاعه وإلقائه فى النهر ، ثم تنهد وتخلى عن الفكرة واكتفى بالضغط عليه إلى درجة عصره وسقوط كلماته المقدسة ..

أمره الشيخ بالنوم ثلاث ليال تحت السماء أمام الدار دون سقف ..

أخذ يضرب كفا بكف والمياه لا تعبأ .. تذكر زوجته وحبيبته التى هام بها

ثلاث سنوات حتى آن الأوان فتزوجا .. سهاد شوقى .

– ما أحلى اسمك وروحك .. يا حبيبة قلبى.. ماذا تقولين عنى يا نور العيون ؟ لا تسيئى بى الظن مهما طال الوقت ، سوف أعود إليك .. حتما سأعود .. أنا أحبك ولم أغضب الله أبدا .. كان حبى للرياضة شاغلى ومانعى من الزلل ، فراقك هو العذاب الحقيقى ، أملى أن تنتهى هذه المأساة قريبا .. أنت منذ البداية رفضت فكرة نومى خارج الدار ، قلت لك لأبرر خروجى : أعانى من اختناق مؤقت . بالطبع لم يكن من المعقول الاعتراف بما اقترفناه أنا وأبى وصديقه الذى جرنا إلى الشيخ الملعون ، بقيت معك حتى منتصف الليل ثم انتقلت للنوم فى الخارج ليحدث ما كان لا على البال ولا على الخاطر ..

(٢)

قرر أن يكسر موجات الرعب والقلق التي تعصف به محاولا استثارة قواة الروحية حسب ما تعود بممارسة اليوجا .. جلس مربع الساقين معتدل الرأس ينظر بثبات تجاه الأفق ويداه مبسوطتان.

قرر أن يصمد ولا يهتز أبدا .. سوف يصبح بعد ساعة شخصا آخر ..

كان كل شئ يسأله : إلى أين تمضى أيها الرجل ؟

ولماذا أنت بالذات ؟! ومتى تنتهى هذه الرحلة المغمورة بالأسرار ؟ أيها الرجل الذى دبر حياته على نحو ما .. هل أنت الآن على نفس الدرب الذى اخترته ؟ وكم هى نسبة نصيبك فى هذا الاختيار ؟ .. كم كنت تهاب البحر والموج لأنك لا تجيد السباحة ! فهل حان الحين لتكسر رعبك ؟ كنت تحب السفر والارتحال ، هذا هو حبك قد حط بين يديك ، وحملك حملا وأطلقك دون أجنحة ، وبعد أن كنت سادرا فى أعماق النوم ، أنت الآن بلا أجنحة تسابق الريح ، وكأن خادم الخاتم هو الماء الذى يطير بك بسرعة أسطورية إلى حيث لا تعلم .. فكر كما تشاء ، لكنك أبدا لن تستطيع أن تقبض على النهاية .. حدق فى الأفق كما تشاء ، واستسلم لقدرك لأنك لا تملك القدرة على الإمساك بمقود المياه ، ولا تملك أن تحيل الإقدام إدبارا . أنت الآن لا ترى بعيونك وإنما بعيون النهر الذى يواصل اقتراف جريمة تعاطى الانحدار نحو الهاوية .

لماذا تنتظر خلفك بين الحين والحين ؟ هل يمكن أن تتبعك البلاد لتطمئن على نوع الضياع الذى اختارته الأقدار لك . إنك لا شك تتلفت

حولك وأمامك وخلفك وفوقك ، باحثا عن مخلص ، من حقك أن تبحث عنه ، لكن المشهد لا يوحي بإمكانية ظهور ذلك المخلص . لاشك تقول : إن الناس الذين ضجت بهم الشوارع والساحات وكنت تأخذ طريقك بينهم بصعوبة .. الآن غابوا .. الطائرات والأقمار والمناطيد ومختلف الاختراعات العلمية الطائرة والسابحة، لا تعمل الآن ولا نور لها .. كل المخلصين اختبئوا وراء أحلامهم .. وتنصلوا من مد أيديهم إليك ولو بالدعاء .. الماء الآن يملي شروطه ، والكل يجاهر بالصمت المشبوه .. أنت الآن وحدك تماما وكل ما حولك إن لم يتربص بك فهو متواطئ .. أنت الآن وحدك مقذوفا إلى المجهول لا تسمع سوى موسيقى الماء الصاخبة وهديرها كقرع الطبول يدوى فى شرايينك . يكفيك الآن هذا القدر المغالى فيه من الرعب والعجز . آن أن تتخلص من خوفك لتفكر فى القوى التى تحيط بك وتدفعك- إلى درجة الارتطام الحتمي - بمصير غاية في الغموض .. المستقبل المجهول نفسه أوضح من هذا المصير الذى تحملك إليه محفة مجنونة .

اشحذ قواك و.. روض نفسك وجهزها للنهاية .. أقوى الرجال من يكون على أهبة لقائها أيا كانت .

مع تراجع أشعة الشمس واحمرار الأفق واتساع المجهول، وتباعد الضفاف وغموض الرؤية وهبوب رياح باردة لها هجمات وصفعات ، تزايد إحساس نادر بالخوف والحيرة والعجز ، تبع ذلك إحساسه بالجوع والضعف .

كان قد حاول أن يدفع المياه بيده شرقا أو غربا يمينا أو يسارا فى اتجاه أحد الشاطئين، لكن ذلك لم يؤثر فى اندفاع المياه وثبات توجه المرتبة الذى كان وسطيا تماما ومستقيما . كرر المحاولة دون جدوى ، وتكرس لديه شعور باللا جدوى ، وأن عليه الاستسلام التام فليس له من الأمر شئ .

تطلع إلى السماء طويلا كأنه يود لو يجرها من ضيائها ويسألها عن سر ما يحدث له .

لمح بعض الطيور البيضاء تحوم بعيدا .. سرب منسجم فى حركته .. تتبادل على أجساد الطيور مجموعة من أشعة الشمس الملونة بين الرمادى والأحمر .. تعلو وتهبط فى حرية وابتهاج ، خفف عنه مشهد الطيور قليلا من حجم تعاسته المعتقة ، لكن زورقه الإسفنجى انطلق به بعيدا عنها ، فخلفها وراء ظهره ، ومع ذلك فقد قال نادر :

– أين أنت الآن يا طائر القادوس ، يا رسول السلام والأمان والطمأنينة .. لطالما كنت تحلق فوق رؤوس البحارة وهم يجوبون محيطا لا يرون مثلى على البعد له نهاية.. لازلت أذكر بعض القصص التى كنت بطلها.. أيها الطائر.

عادت زوجته تطل من بين طبقات الموج .. كانت البداية عندما جاءت مع زميلتها شقيقة رائف المهدى منافسه فى احدى المباريات .. قالت له بعد ذلك:

– لم تهمنى كثيرا قواعد اللعبة . ولفت نظرى أكثر حركاتك الرشيقة وشخصيتك وأنت تلعب .. أنت لم تكن عصبيا .. كنت هادئا ، لكنك سريع الانقضاض .. تخدع خصمك بهدوئك .. لا أحب الملاكمة لما فيها من شراسة وتصميم على تشويه المنافس وتكسيره إذا أمكن وأحيانا قتله ، لكنك جعلتنى أحب هذه اللعبة .

ضحك .. إذ تذكر أنه سألها .

– اللعبة فقط ؟

ضحكت ، وأكملا طريقهما إلى حديقة الطيور .. لكم عشقا هذه الحديقة ! ، وكان هو الداعى إلى زيارتها .. حديقة تمتلئ بالأشجار والنباتات ، كل سكانها من الطيور ، سواء منهم الأحرار كالبجع والنعام والرومى والصقور والنسور والغربان والحدادى وجماعة أبو قردان ، والإوز

وأبو مركوب والحباك أو التى فى الأقفاص كالبلابل والكروان والعصافير والببغاوات .

لم يكن يمر أسبوع دون أن الحديقة حيث منظومة الجمال موزعة بكل الألوان على المخلوقات اللطيفة يزورا ، وكل الروائح تطلقها النباتات وكل الأصوات الشجية تبثها حناجر رقيقة للكائنات الرائعة ، وكان منطقيا أن يكون أغلب من فى الحديقة من العشاق وكبار السن ، تتعانق كل آهات وهمسات وأشجان وأحلام مجموعة منتقاة من روائع الخالق العظيم .

التفت حوله عجلات الليل والنهار بساعاتها التى تشبه التروس تنهش فى لحمه وتعتصر كبده ، بينما جسده معلق بالمرتبة بواسطة مؤخرته .. المرتبة مشنقته التى لا تمسكه وهو الذى يمسك بها .. إنسان يتشبث بمشنقته ، بينما تمور روحه بأمواج عاتية من الغضب والانكسار . قال : ليس من سوء الظن اعتقادى بأن الشياطين هى التى قذفت بى من دون كل البشر فوق الماء المجنون .

انطفأت روحه فجأة وتداخلت أعضاؤه وامتلأت أعماقه بالكآبة.. آخر ما كان يمكن أن يحدث فى نظره هو أن يعيش تلك اللحظات التعسة فى الفراش مع زوجته .. فى البداية يكون متحمسا وهائجا ومنتشرا ، يتبادلان القبلات والعناق الحميم ويتلذذ بتذوق اللحم الطرى الناعم الذى يشع دفئا ونشوة .. ويتعالى إيقاع الغريزة وتدق طبول الشهوة ويستثار الجسدان الشابان المغموران في بوتقة الرغبة الحسية المتوهجة ، وبعد العناق الطويل والعراك اللذيذ واللهو الجميل .. يرفعها فجأة ويطير بها فى الحجرة وهى تضحك ، ويتعالى الضحك غصبا عنها وتحاول كبحه لكن حصان الضحك يتقافز ويرقص ويركض كلما ركض الفارس بعصفورته الفاتنة ، ثم يحين الحين بعد إلحاح منها يوسدها الفراش ويقترب منها ويهم ..

فإذا الأعضاء تتراجع وتتراجع .. ويحاول ويحاول دون جدوى .. كيف يحدث هذا لرياضي لا يزال يمارس لعبته الأثيرة .. الكونغ فو .. الشيخ ضاحي يقول : مربوط .. هناك من سعى لوقف فاعلية الذكر .. شئ لا يصدق ..

لكنه كان يبحث عن قشة في بحر الكرامة اللجى المتلاطم .. وهكذا خرج لينام تحت شباكها الخائف وقلبها الراجف .

انتفض نادر وارتعد ، عليه أن يواجه رعبه الداخلي والخارجي .. رعبه الذى خلفه وراءه ، ورعبه الذى يعيشه الآن .. الماء يتقدم ، يزداد اسودادا وغموضا ، وتنعدم أى إمكانية لرؤية أعماقه .

أمسك بيده العديد من السمك المتوثب الجميل .. لاحظ المحاولات الدؤوبة للإفلات .. الرغبة فى الحرية ، التى تتجاوز أحيانا الرغبة فى الحياة .. الحرية .. المفتاح السحرى للحياة الحقيقية . ألقى السمكة بعد السمكة .

خامره إحساس بأنه إذا لم تكن به حاجة الآن إلى السمك النيئ ، فلعله إذا طالت المهزلة يصبح مضطرا لذلك غدا أو بعد غد .

تقافز السمك حوله ، حتى أن بعضه وقع على المرتبة .. تركه نادر يقفز فوقها قفزات متواصلة تزداد توترا مع غياب الماء .. ساعده على الوصول إليها .. فاندفع إلى الأعماق بعيدا عن المصير المجهول فوق مرتبة نادر .

داهمه شعور بالوحشة والعزلة .. وحيدا يمضي بسرعة نحو النهاية .. مستسلما .. لقد ضلت الدموع طريقها نحو المقلتين .. حاول نادر استدعاءها، فقد تخفف بعض ما به ، وتربت على كتف عجزه وحيرته .. لكنها لم تظهر البتة وانقطعت تماما أخبارها .

صعبت عليه نفسه .. الحل الوحيد يكمن فى السباحة ، وهو لا يجيدها ،

بالكاد كان يسبح عدة أمتار على شاطئ البحر ومياه البحر تختلف .. ليس بإمكانه أن ينسى يوما أوشك فيه على الغرق عندما جرب أن يسبح فى النهر مع بعض الأصدقاء.. ثلاثة أذرع فقط ووجد نفسه يهبط ويهبط ، جن جنونه وأسرع يضرب المياه بيديه ورجليه باحثا عن السطح والنور والهواء .. الروح تكاد تفارقه والرعب يسيطر عليه .. كان حاله أسوأ من حال السمك الذى قبض عليه منذ قليل . لم تسمح الفرصة كى يتدرب على السباحة حتى يجيدها وتنفعه فى مثل هذا الموقف التعس . لام نفسه بشدة ومط شفتيه أسفا لافتقاده هذا السلاح المهم .. ومع ذلك ظلت نفسه تزين له الإقدام على السباحة نحو الشاطئ ، إلا أن الموج الثائر كان حاسما فى الإيحاء إليه بأنها ثوان فقط حتى يلقيه إلى القاع السحيق .

طلعت عليه وجوه الأهل .. أمه وأبوه وأخته نادية وزوجها الفاشل عاشق المقاهى والسهر .. أخوه زكريا الذى شق طريقه فى التعليم بقوة . كان الأول هذا العام على طلبة كلية التكنولوچيا .. أخوه طاهر المتدين زاهد الدنيا ونموذج الإنسان الصالح .. الطيب غير المعقد والحنون جدا .. رامى الأصغر لاعب الكرة الشراب الذى يلعب ليل نهار ولا يعود إلى البيت إلا مع الفجر ، ولا ينفع معه كلام .. شخص غريب .. يلعب خمس وست مباريات فى اليوم .. ماكينة كروية .. تعبده الشوارع والأزقة رغم أنه لم يتجاوز الخامسة عشرة.. يتخطفه الشباب ، صبيان وبنات ويحييه الكبار حتى الشيوخ على الأقل لأنه مؤدب ولا يؤذى أو يسب أحدا ..

ينتزع نادر ابتسامة إذ يتذكر أن رامى إذا لم يجد فرقا تود اللعب ، وقف وحده فى الشارع يلعب بالكرة فى عزف منفرد ، مستعرضا مهاراته فى الإمساك بالكرة عدة ساعات لا تلمس خلالها الأرض ، صاعدة من قدمه إلى ساقة وإلى ركبته، ثم إلى بطنه وكتفيه ورأسه و.. و... والناس تتجمع لتشاهد عبقرية أدائه ، ثم يذهب بعضهم ويأتى غيرهم وهو لا يمل ولا

يكل ، الأغرب أنه لا يحس بالناس ولا يعنيه أن يتوقفوا ويتجمعوا أو يفارقوه.. الساحة خالية أو محتشدة ، علاقته بالكرة .. روحه وقلبه وأعصابه معها..

– آه .. يا رب .. أين الفرج ؟ .. زادت اللعبة عن حدها .. أين النهاية؟ .. أرهقت تماما .. أدع لي يا شيخ طاهر .. أدع لي يا شيخ طاهر .

تنبه إلى شدة البرد .. سحب البطانية والتف بها .. بدا النهر أمام عينيه موغلا في السواد شعر نادر أنه داخل قبر شديد العتمة بعرض الكون كله .. سواد في سواد.. يتحرك ويتضاعف ويتكدس إلى درجة العماء التام .

ظل مقرفصا يطل في الظلام . تحيط به ليلة حالكة السواد مثل القار .. الظلام شامل وكامل لا تؤثر فيه النجوم المتناثرة في السماء ، ولا التي تنفجر وتسقط في الأفق البعيد .. السماء كالنهر ، كالأرض.. كالمدى .. كقلبه المعذب .. طبقات من الظلمة ، الفارق الوحيد بينه وبينهم ، أنهم جميعا مستقرون في مواضعهم وهو المسافر أبدا بلا هدف ولا متاع ، والسائق أعمى والطريق والنهاية وكل شئ يدعو إلى الإحباط المفجع .

ليس قبل الفجر سقط نادر بعد أن أجبر النوم جفونه على التهدل ورموشه أن تنغلق .. نام نحو ساعة وهو جالس .. ثم مال على جنبه والتف جيدا بالبطانية وجمع تحتها كل أعضائه في أصغر مساحة ممكنة ، وقبل أن يغط تماما .. قال في سره :

– يا رب .. ليس لي غيرك .. لم أفعل أي شئ أستحق بسببه كل هذا .. سلمت أمري إليك .. وأطمع الآن في رحمتك .

أراد أن يتحدث طويلا إلى الله ، لكنه كان يعلم أن الله يعلم ولا وقت للثرثرة .

تنهد وقد شعر بقدر غير قليل من الراحة، إذ سلم الأمر كله لصاحب الأمر .. أمكنه بعد ذلك أن يركب محفة أخرى هي محفة النوم العميق .

عندما استيقظ، رأى شمسا جديدة ثانية تشرق عليه فحمد الله مرتين، ولعله في هذه اللحظة كان أسعد من خلق .. حمد الله مرة لأنه لا يزال حيا برغم الظروف والتهديدات التي تتم في أحضانها رحلته العجيبة ، ومرة لأنه الآن بجوار الشاطئ .. أى شاطئ .. بعد أن أمضى ليالي في حضن الموت .. والآن .. تحيط به جذور شجرة متجهة نحو الماء لتعب منها كيف تشاء ..وجسر خشبي يمتد إلى مسافة عشرة أمتار داخل النهر ، ربما كانت مرسى قوارب .. تأمل المياه .. وجدها ساكنة تماما.. لعلها أنهكت من طول السفر .. وتعجب للفارق الكبير بين حالتين .. وبين زمنين .

عاد يحمد الله.. تخامره دهشة لا حدود لها ، لأنه حي بعد الرحلة الطويلة على قطار الماء المجنون الذى مضى بدون قائد إلى بلاد لاشك تبعد كثيرا جدا عن بلاده .

(٣)

نهض من فوره وليس في رأسه أي فكرة إلا البحث عن طعام . في شوق شديد هو لأى شئ يمكن أن يؤكل حتى لو كان في العادة لا يؤكل، سوف يلتقط أى نبات على الأرض ، أى ثمر يتدلى من الشجر .. حان وقت العمل . ما مضى كان محض انتظار ، والآن عليه أن يتحرك بسرعة فلابد سيواجه سكان هذه البلاد ، فكيف يتعامل معهم ، ولعل اللغة ستكون مشكلة تضاف إلى مشكلات خاصة بالملبس فهو شبه عريان وبلا حذاء وبلا نقود وبلا أوراق أيضاً .. عار من كل شئ ، لو أوقعت به الشرطة في أى بلد بل في بلده هو لما استطاع أن يثبت صحة ما يدعيه .. الموقف سئ .. وأيا ما كان الحال ، فاليأس لم يعد له مكان بعد ما كان . لابد من التفكير في رحلة العودة بأسرع وقت ممكن :

– اشتقت إلى سهاد .. نور العيون .. الله يلعنك يا ضاحى .

كان يجب أن أبقى بجوارها أواصل محاولاتي.. الفشل الذى ألاقيه معها لن يطول .. أنا على ثقة من ذلك .

طوى البطانية وجر المرتبة إلى منطقة آمنة من الشاطئ ووقف لحظات يستطلع المكان .. الشجر والنخيل العالى المطل على النهر في صف بلا نهاية . تصعد نظراته فوق الروابى الخضر وهى في طريقها إلى المبانى البعيدة ، ذات النوافذ الصغيرة كأنها ثقوب .. معظم البيوت بلون الرمل وبعضها بألوان ميتة ..

اختبأ وراء شجرة عندما التقطت عيناه في جولتها مجموعة من الرجال قصار القامة .. تتراوح أطوالهم بين المتر وربع المتر والمتر ونصف المتر ..

كان نادر يتجاوز طوله المتر وسبعين سم بقليل..

هم بأن يتقدم ، لكنه لمح مجموعة أخرى مثل السابقة تماما في الطول والشكل .. لونهم جميعا هو البني المحروق .. لما اطمئن إلى خلو الطريق تحرك نحو الهضبة التي تشبه سجادا فاتن الاخضرار يملأ العين بالبهجة .. تناثرت في جانبها الغربي العديد من الأشجار ذات الثمر ، والكثير من الشجيرات المتلاصقة كأنها الأدغال ، تيسر عليه أن يلتقط بعض ما يؤكل ، وتسهل له سبيل الأختباء حتى يدرس المكان ويرتب أموره ويحدد خطوته التالية ..

أسرع منحنيا بحذاء الهضبة يتقدم نحو الأدغال.. توقف للحظات ينتزع من الأرض بعض النباتات مثل الجرجير والبقدونس والخس، عثر على نبات كالخيار ، جمع منه في ردائه نحو عشر ثمرات .. بلغ الأشجار كثيفة الخضرة وعثر بينها على شجر المانجو والنبق والكاكاو والبندق .

قبل أن يزدرد ما يكفيه تطلع إلى الأبنية العالية ، جذبته أشجار توقع أن تكون موزا ، وهو يحبه .. ترك ما كان معه واتجه إليها .. تجاوز المنطقة متجها لما بعدها .. بدا فجأة كأنه يود أن يتعجل تعرفه إلى أهل البلد...

كانت ثمة ثعابين رفيعة وقصيرة تجري تحت قدميه بين الحشائش..

فوجيء بامرأة تطل من شرفة عالية ، تكاد تكشف المنطقة بكاملها .. تلفت حواليه بحثا عن سبيل الفرار .. وقبل أن يقرر إلى أي ناحية يتجه، أشارت إليه .. تسمرت قدماه في الأرض ، ثم إذا به يتقدم نحوها كأن أحدا يجره .. أيقن أن مثل هذه اللحظة لابد قادمة ، ولا مفر من المواجهة ، حسن أن تكون البداية مع امرأة ، فهي دون شك أرق وأرحم من رجل تؤرقه في العادة رجولته ..

قبل خطوات من البوابة الخشبية التي يحيط بها سور من الأشجار ، كانت المرأة القصيرة أمامه .. سمراء لها ملامح لا تغرى بأى شئ وليست قبيحة . يغيب عنها ما يلفت النظر إلا الأساور الذهبية التى تغطى ساعديها ، وقرطان كبيران يتدليان من أذنيها وشعر كثيف وطويل وسلسلة ذهبية تتدلى على صدرها ، ترتدى ثوبا أبيض به زهور خضراء صغيرة ، وعلى رأسها عصابة بنية تحتها وشاح برتقالى شفاف .

وقف أمامها .. قالت :

- تف تانت .

لم يفهم .

أشارت بإصبعها إليه وقالت :

- تف تانت .

بدا عليه عدم الفهم .

أشارت بإصبعها إليه وأشارت إلى الأرض ، ونفت ذلك بإشارة تعنى أنه ليس من هذا البلد .. فهم أن ما تقوله : أنت غريب .

هز رأسه موافقا . مد إصبعه إلى فمه ، أحضرت له ماء فشرب ، ثم وضع إصبعه في فمه .

أشارت بيدها ليتبعها .. لم تدخل البيت الذى خرجت منه .. مضت خارج السور وطلبت منه أن ينحنى قليلا ويتبعها فى طريق ضيق ، وبعد لحظات تلتفت إليه وتطلب منه أن يظل منحنيا .. عانى كثيراً مما يشوك قدميه العاريتين .. بلغت فتحة صغيرة قبل نهاية السور.. أشارت إليه كى ينفذ منها ، نزلت به إلى عريشة عنب مهملة .. عالجت بابا حائل اللون.. انفتح وهو يحدث صريرا يكشف انزعاجه .. قاعة فسيحة بها كراسي قديمة ودواليب وسجاجيد مطوية عليها الكثير من التراب .. فتحت بابا .. اجتازته وأضاءت نورا . أشارت إلى كرسي أمام منضدة .

طلبت منه أن يجلس ..

خرجت المرأة .. وقف نادر يتأمل ما حوله فى الحجرة والقاعة ، تهاجم أنفه رائحة عطنة ويطالعه التراب مكدسا فوق كل شئ .. لماذا أدخلتنى هنا ؟ أريد طعاما فقط ..

ثمة صناديق كثيرة من الكرتون وصندوقان من الخشب ، عليها نقوش .. تدور حولهما أحزمة معدنية .. أقمشة مهترئة.. ألواح خشبية وأوان فخارية .. بنادق صدئة وجلود مترية على الجدران التى تساقط طلاؤها فى كثير من المواضع ، فرسم أشكالا لحيوانات أليفة وبرية ووجوه بشرية تنقصها بعض الأعضاء.

صندوق بلا غطاء ممتلئ بالغلايين والتبغ الملفوف .. كانت السنوات التى مضت داخل هذا المكان المهجور قد تعطنت وشاخت ولم يبق منها إلا نظرات مكدودة وذكريات ذابلة لا يستطيع الغريب أن يقلب صفحاتها.

عادت المرأة تحمل طعاما .. كان جائعا جدا ومع ذلك فقد حاول أن يفهم أو يتعرف طبيعة هذه الأطباق .. بعضها يحتوى عجينا .. وبعضها به نباتات مطهية .. تعرف إلى الخبز الذى كان غليظاً ومستديرا .. كانت هناك شريحة من اللحم المشوى.. ما إن وقعت عليها عيناه حتى سبقتهما يده قبل أن يواصل تأمل الصينية الخشبية الممتلئة بالأطعمة ..

انتقل إلى حبات البطاطس المسلوقة والفلفل الأخضر وأوراق النباتات المطهية ، لكنها كانت حريفة جدا وملتهبة .. تجرع الكثير من الماء ثم انتقل إلى التفاح والبلح وثمار الكانتالوب وثمار صغيرة كالكريز .. لم يكن يعبأ بها أثناء هجوم الجوعى الذى قاده على الصينية ، وهى تنظر إليه وتتابع كل حركة .. عندما أدرك أنه نال ما يكفى من الطعام تحول إلى قارورة المياه . تجرعها إلى النهاية ..تجشأ ثم تجشأ .. أخذ نفسا عميقا .. تأكد أنها

تحدق فيه .. استسلم ساكنا لنظراتها . رفع نظره إليها .. كانت عيناها تتطلعان إليه في مودة وترحيب .. دقق في ملامح وجهها .. اكتشف أن لها شفتين مكتنزتين وأسناناً بيضاء جميلة وسليمة ، مصفوفة بتناسق لافت..

جلست إلى جانبه .. تبادلا النظرات .. أدركا في وقت واحد أن الأبواب جميعها مغلقة بسبب اللغة .. يود كل منهما أن يقول شيئاً .. لا سبيل إلى ذلك .. على الأقل الآن .. أحس أن البداية طيبة وأن تعرفه على أهل البلد من الأفضل أن يتم تدريجيا كما هو الآن .. بداية منفردة مع سيدة كريمة .. يحاول بأي وسيلة ، أن يتعرف منها على بعض المعلومات ، أو تقوم هي بتقديمه لأهلها ثم بعض الأقارب ، والأهم من هذا جميعه أن تعينه على اتخاذ طريق العودة ، وتدله على وسيلة النقل المثلى سواء البحرية أو البرية ، ليس ثم داع للبقاء طويلا في هذه البلاد ، فالصورة المحدودة التي بدت من أطرافها لا تكشف عن ثراء ومعالم ازدهار عمراني ، وحتى لو كان ذلك متوفرا على أعلى مستوى ، فهو ليس في حالة تسمح له بالاطلاع والسياحة ، يجب أن يعود في أقرب فرصة لأن الأهل يتقلبون على جمر من نار لقلق والحيرة . لقد اختفى فجأة ، ومن حقهم أن يرجحوا غرقه بعد أن لاحظوا السيول الجارفة وما اكتسحته في طريقها وما ألحقته بالمدينة من أضرار .

بلغه صوت طائر مميز وغريب . خطفة صوتية قصيرة ، يطلقها الطائر عدة مرات كأنها الصوت الناتج من التقاء قطارين في غاية السرعة..

ارتبك نادر لأن المرأة تحدق فيه بإمعان .. بأطراف عيونه يلمحها تفحصه من قدميه إلى رأسه ، ومن رأسه إلى قدميه .. فجأة قال لها وهو يشير إلى نفسه :

– نا .. د .. ر .. نا .. د .. ر

ثم أشار إليها وأدار كفه متسائلا .. لم تفهم ، فأعاد إشارته إلى أن ضحكت وقالت وهى تشير إلى نفسها:

- دامى.

اعترف نادر أن ضحكتها جميلة .. وقد ساعدت أسنانها البيضاء وغمازتان فى خديها لتجعلها كذلك .. ابتسم.

نطقت اسمه عدة مرات .. حركته فى فمها كأنها تبحث عن مذاقه ، وكان اسمها سهلا جميلا ، لم ينطقه نادر غير مرة واحدة حريصا على تغليظ الدال كأنها ضاد..

أشارت إليه وقالت : نادر.

فأشار إليها وقال : ضامى.

صححت له النطق على أساس التخفيف ، وكان غير راض من البداية عن التخفيف لأنه يدل على الدم المسال .. ثم نطق نادر اسمها كما أرادت ففرحت ، لأن الغريب أصبح يعرف اسمها، وكانت تلك فى نظرها أهم مرحلة...

فوجئ بها تشير له بمعنى أنها رأته منذ خروجه من النهر .. كان ذلك مثيرا جداً له .. إنها مسافة بعيدة .. هل يمكن أن يكون بصر كل أهل هذه البلاد بهذه الحدة .

سألته هل يحب أن ينام ، حرك كفيه عدة مرات على جسده ، فهمت .. هبت فنظمت له الحجرة بحيث يمكن أن يرتاح فيها مؤقتا ، واستبدلت الملاءة والأغطية والوسادة .. أشارت إليه كى يجلس فى القاعة حتى تكنسها وتنظفها .. بسرعة فعلت .. كانت هناك دورة مياه ضيقة جدا ليس بها ماء..

أحضرت له صفيحة كبيرة وصابونة وفوطة.

أحضرت له بعض الملابس فلم تصلح له ، ورضى بها على أية حال ..

لبس الجلباب فتوقف فوق ركبتيه ، لم يناسبه أى حذاء فبقى حافيا ، تركته على أن تعود بعد العصر .. حذرته من أن يفتح أى نافذة .. وكررت ذلك .. خرجت وأغلقت الباب عليه من الخارج .. استحم جيدا .. جلس على السرير بعض الوقت ثم نام إلى أن سمع صرير الباب .. سمع حفيف ردائها ولمس حذائها الخفيف على الأرض .. طلع عليه عبيرها الفواح فاستنشق منه متلهفا . وضعت صينية معدنية عليها براد وكوبان ..

قام فاغتسل وجلسا يشربان الشاى ويتبادلان النظرات ، إلى أن مدت يدها وأمسكت كفه وقلبته في يديها ، ورغم المفاجأة التى شملته فقد قرر ألا يصدها على الأقل من باب الشكر .. لمست بحنان شعر ساعده .. ثم ضغطت على لحم ذراعه ، مرت بيدها على بقية ذراعه حتى زنده وهو ممتثل لصاحبة الدار .. وقفت واقتربت منه وهو جالس .. لمست خديه وشعر ذقنه الذى نبت بسرعة.. مرت بأصابعها على شفتيه وأنفه وجبهته ثم طلعت إلى شعره ، دنت منه واحتضنت رأسه .. دفسته فى بطنها .

لم يستطع نادر أن يتقبل المراحل التالية بوصفها تعبيرا عن الشكر ، أدرك أن ذلك أمر غير مفهوم .. بحث عن وسيلة ليتخلص من الموقف المتأزم .. تذكر موقفه مع زوجته .. كما أنه كان مشغولا بالتفكير فى رحلة العودة .. كان يود أن يسألها :

– هل تعيش هنا وحدها .. أين الأب والأم والأخوة ..؟

أشار لها بما يعنى ذلك.

وضعت يدها على فمه ليصمت وقالت له :

– نادر.

وضعت إصبعها على فمها رأسيا.

كأنها تقول له : دعنا من الأسئلة .. دعنا نعيش اللحظة الجميلة .. ليس عليك أن تفعل شيئاً أو تقول كلمة ، سوف أقوم لك بكل شئ وابق أنت بين

أحضاني .

لم يكن أمامه من سبيل إلا أن يرضخ وقد شعر بنعومة أنوثتها.

– لقد تاقت نفسي دائما إلى رجل غير عادي .. رجل يعوضني عن عشرة رجال .. وها أنا قد عثرت عليه .

ادعى أنه سيعطس ، فابتعدت .. طلب منها أن تفتح النافذة فالتراب يضر صدره .. رفضت بشدة فتح أي نافذة .. طلب سكينا .. لم يعرف كيف يصفه لها إلا بأن يمرر سبابته تحت رقبته ، سألته عن سر حاجته إليها ، فاتجه إلى السجاد القديم وأشار إلى قدميه فلم تفهم .. انحنى وقطع مساحة صغيرة من السجاد مثل صينية الشاى الصغيرة ، ووضعها تحت قدمه .. ولما لم يجد عسرا في تمزيق السجاد ، قطع مساحة أخرى مماثلة وطلب منها ما يربط به ، فأحضرت له خيطا من الدوبار .. لفه حول قطعة السجاد وهكذا أصبح له حذاء ، طلب مشطا فأحضرته في الحال ومعه زجاجة عطر رجالي صغيرة ، وبعدها حملت إليه العشاء .. وسألها عن أمها وأبيها ..

أشارت إليه بأن أباها توفى وأمها بالبيت المجاور الذى خرجت منه ومعها أخ صغير ، وأخوها الأكبر تزوج ويعيش بعيدا وكذلك أخت لها أصغر منها...

عادا يجلسان ويتبادلان النظرات، خشى أن تقوم إليه فطلب منها قطعة من القماش ليطيل الثوب أو يخيط سروالا .. أحضرت له القماش من البيت الثاني وعادت .. حاول أن ينشغل عنها في حياكة السروال وكان يأمل أن يحيك سروالين داخليين قصيرين ، فلم يكف القماش واستنكف أن يطلب ، فرح بالسروال وفرحت به أيضا وقررت أن تقبله فأبى وقاوم ، لكنها كانت قد قررت ألا تتركه إلا بعد قبلة عامرة ، كان يعرف أنها لابد أن تغادر المكان فعزم على السماح لها بذلك ، قبضت بشفتيها الممتلئتين على شفتيه واعتصرتهما ، حاول التملص فلم يستطع .. هاجت أعصابه وداعبته نعومتها

ورغبتها العارمة وبدنها الصغير الطرى ولحمها الدافئ ، فاحتواها بين ذراعيه ومضى يلتهم شفتيها الدسمتين وينهل من رحيقها، وعندما رغبت فى التملص لم تستطع . فاستسلمت حتى ارتفعت راية العقل معلنة أنهما أخذا ما يكفي ، وآن أوان الفصل بين القوات المشتبكة ، قام نادر بانسحاب منظم ، وأبعدها عنه برقة .. ثم أعادها إلى صدره في وداع حنون ومحاولة عذبة لتهدئة المشاعر الجياشة تمهيدا للفراق .. فوجئ بعينيها بحيرتين من دموع .. أعادها إلى صدره وربت على ظهرها ومضى بها نحو الباب ، حتى أوقفته وطلبت منه أن يثبت سجادة فوق النافذة ويحرص دائما على الضوء الشحيح فلا يجب أن يعرف أحد بوجوده .. قال لها: أبقي الباب مفتوحا .. لم تحفل وجرت الباب في يدها وأحكمت إغلاقه من الخارج ..

تنهد عميقا متسائلا عما يجرى وما العواقب ؟ وهل جاء هنا ليمارس الحب ؟ أم أنه يجب ألا يبقي دقيقة واحدة دون تفكير فى سبيل العودة ؟ .. ماذا أصابك يا نادر ؟

توالت الأسئلة وتعددت الأفكار ، مضى يرتبها ، الأهم فالمهم ، ثم يعود فيهدم ما بنى ويجدد الترتيب والبناء إلى أن انتهى إلى حتمية العمل بجدية مع أول ظهور لدامى فى الصباح من أجل العودة وتحديد وسيلة الرجوع .. كل دقيقة تمر وأنت لازلت هنا سوف تنقلك إلى ما هو أسوأ ..

هكذا أقنع نفسه.

بلغه صوت الطائر المميز يخطف عدة خطفات صوتية وتذكر أنه سمعه منذ ساعة وقبلها بساعة .. وكاد يعتقد أن الطائر منتظم جدا فى مواعيد إطلاق صيحته المنبهة..

****

(٤)

تجرع أثناء نومه طوال الليل الكثير من الأحلام المعلبة .. عشرات الوجوه التي يعرف أصحابها تخوض فى وحل أحداث قصيرة وسريعة .. غريبة ومتداخلة .. يرتطمون بمصائر مفاجئة وعجيبة .. تتغير أشكالهم ويتحولون إلى طيور لها نفس الوجوه الأولى ولكن صورها جديدة ومرعبة ، تسيل من أفواههم الدماء خيوطا حمراء تمتد إلى الأرض ، لحظات قليلة ، وتتفجر الطيور ، واحد بعد الآخر.

ما إن أطلت البذور الأولى لضوء نهارى رمادى تتعلق به قطرات الندى، حتى هب نادر مفزعا تحت صفعات الأحلام ووخزها .. ثمة صداع حاد يضرب رأسه ، يخالجه إحساس ثقيل بالضجر .. تذكر رغبته منذ المساء الماضى فى أن يمارس الرياضة ، فقد تعود أن ينصلح حاله ومزاجه إذا قضى معها ساعة .. كان بروس لى قد عاتبه في أحد أحلام الامس على تخليه عنه رغم أنه بشّره بمستقبله في اللعبة ، وبإمكانه إذا اجتهد أن يكون خليفته ، وحذره من التقاعس عن التدريب ، ووعده أن يكشف له حركة جديدة لم تستخدم من قبل سيخصه بها.

اتجه إلى الباب ، وجده مغلقا من الخارج.. حاول فتح النافذة .. لم تستجب .. أهالت عليه كمية من الغبار .. كان الزجاج ملطخا ببصمات السنين المتعفنة .. أسرعت النسمات الطازجة فرحانة تعانق المكان الصدئ .. ربتت على الصناديق والظلمة المتكلسة والروائح العطنة .. أزاحت قليلا من الغبار المتشبث بالأشياء التى نسيت تماما مذاق النور وملمس النسيم ..

مرت على الغموض الذى يتخلل المكان المريب .. تنفس الجميع بقوة وشهقت بالحياة المهملات الميتة .. كادت المعالم المهجورة عندما دقت بابها النسائم أن يصيبها السعال ..

لا يريد أن يمارس رياضته على الأرض التى يغطيها تراب مسن وجو شبه مختنق برغم الهواء الجديد ، فكر أن يقفز من النافذة ليجرى عدة أميال .. لم يتعود أن يبقى أياما دون حركة .. اغتسل وحاول أن يتنفس بعمق .. لم يرضه الهواء .. فكر أن يفتح النافذة . خشى أن تغضب دامى .. لما شعر بالاختناق ونداء جسده المشوق للانطلاق ونداء بروس لى ، قفز من النافذة دون تفكير .. وجد نفسه تحت عريشة عنب .. انتفضت العصافير التى عششت فى سقف العريشة ولعلها تكاسلت عن التحليق وغذت صغارها عنبا فى الصباح وعنبا فى المساء حتى سكر الجميع ..

العريشة مهملة . تكسو الأرض طبقات من الورق الأصفر .. مشى عليه .. قرقعت هشاشته .. بدأ تمريناته مع شهيق عميق وزفير .. سحب الهواء الطازج جميعه إلى قاع بطنه .. رأى فى نهاية العريشة صفا من أشجار الصنوبر والموز وأشجار أخرى لم يميزها .. كانت الأوراق والسيقان ثملة بالنضارة .. نشوى بالحيوية . لا تنتظر النسيم حتى تتموج وترقص وحدها .. أشجار الموز برغم جذوعها الراسخة تتمايل كثيرا جهة اليمين وجهة اليسار مشغولة بالثرثرة . تنهمر كلماتها لتحكى لجيرانها كل ما جرى ، وما التقطته من الهواء أوراقها العريضة التى تجيد الإنصات.

أزعجته الأوراق الصفراء التى تتهشم بصخب تحت قدميه .. استعان بغصن شجرة جاف فى كنس الأوراق ودفعها إلى الأجناب . واصل تدريباته وشهيقه .. لمح أوزة بيضاء تطير عاليا أكثر مما كان يتصور ..

– ليتنى كنت مثلك ، أو ليتك تستطيعين حملى من هنا إلى أقرب مكان أستطيع منه العودة إلى البلاد التى ابتعدت عنها كثيرا .. أشعر أنى تركتها

منذ شهور .. مشهدك رائـع وأنت تجوبين السماء الصافية المتسعة لك .. وحدك تطيرين شرقا وغربا .. السعادة التي تتلألأ في عينيك وفي أجنحتك تكاد تتقطر في قلبي .. تتحول إلى أماني غالية في الحرية ولقاء الأهل ..

تذكر أنه لمح حبلا بالداخل .. لابد منه لأداء تمرينات الحبل .. قفز إلى الداخل .. التقطه وهم بالعودة .. قابله وجه دامي وصراخها .. ثائرة جدا .. أغلقت النافذة من الخارج ، فتحت الباب ودخلت عليه .. كان وجهها مختلفا تماما عما كان عليه بالأمس .. ظلت تصرخ وتقول :

- زم كاسر تف إي شاو .. زم كاسر تف إي شاو ..

كلمات لا يفهمها .. فوجئ بها نادر تغلق الباب وتخبط فوق رأسها عدة مرات، ثم جلست على أحد المقاعد ولاذت بالصمت وهي تهز رأسها في أسى وضيق شديدين .. رأى نادر دموعها تسيل وتنخرط في بكاء عالي النشيج ، ليس أقل من حالة ذهول اشتملت نادر وطوته وأربكته .. لم يعرف كيف يسأل عن سبب كل هذه الثور ة . أخيرا اهتدى إلى أهميـــة احتضانها والتخفيف عنها حتى تهدأ ، وربما بعدها تستطيع بأي وسيلة أن تشرح له...

بعد أن هدأت قليلا وكفكفت دمعها .. أشارت له بسبابتها إلى الخارج عدة مرات ثم مررتها تحت ذقنها .. أشارت إليه .

فهم أنها تقصد أن قوما يريدون ذبحه..

خالجه شعور يصل إلى درجة اليقين أنها كاذبة .. مؤكد كاذبة ..

أعادت عليه بحماس شديد وإخلاص إشارتها التي تفيد رغبة أهل البلد في ذبحه ، لقد علمت بذلك أمس ولذلك حذرته من أن يفتح النافذة ، وطالبته بحرارة ، بل أدهشته جدا عندما هجمت على يده تقبلها وهي تحذره من فتح النافذة.

مع ذلك لم يستطع أن يفتح باب عقله لما تقول .. غالبه إحساس أنها تريده لنفسها ، فسلوكها سلوك محرومة متعطشة للرجال .. وحيدة ..

مستوحشة .. لعل الظروف لم تسمح بأن يتقدم لها أحد ، لابد أن هناك أسباب ..

المهم أن البلد لا علاقة لها به ، ولا يعرف أحد شيئاً عنه ، بل لم يعرف بوجوده أحد وهى أول من رآه ، من الشاطئ جاء إلى هذه القاعة وهذا المخبأ...

– لا .. لا .. أنا على ثقة أنها عثرت على رجل غريب يمكن أن يبقى تحت سيطرتها فترة .. تمتلك القدرة على إخفائه وإطعامه والاستمتاع ببعض اللذائذ معه إلى أن تتضح الأمور ، فإما أن يتزوجها ويعيش معها بعد أن تعرف حقيقته ، أو يحبها وتعود معه إلى بلاده إذا لم يكن هاربا من عقوبة أو مطارداً من جماعة أو سلطة . أما أن أختبئ لأن أحدا أو عصابة من هذه البلاد تريد ذبحى فمسألة لا يتقبلها عقل طفل.

استوضحها الأمر فأعادت ما ذكرته..

رأى أن يجاريها مؤقتا حتى يجهز نفسه للهرب ، وفى الوقت نفسه عليه أن يستعد ببعض الملابس .. واللوازم التى قد يحتاج إليها فى رحلة الهرب من هذا المكان ومن هذه البلدة . وعدها أن ينفذ كل أوامرها وألا يفتح النافذة مطلقاً على ألا تغضب .. ابتسمت وتركته لتعود إليه بعد ساعة مزينة وبهية الطلعة حاملة صينية الفطور .. تناول فطوره وحاولا معا أن يتعرفا على أسماء بعض الأشياء والعلاقات وأعضاء الجسم ، وكانت حريصة على معرفة هذه الأسماء فى لغته ، وكان حريصا على أن يعرف هذه الأسماء ودلالاتها فى لغتها .

تنقلت المهمة بينهما دون ترتيب، لكن حسب الفكرة التى تخطر ببال أحدهما .. فمثلا مسألة الذبح .

عرف أن الذبح : كاسر والسكين : شاو، وأنهم يريدون ذبحك بالسكين : زم كاسر تف إى شاو .. قالت له إنها ستخرج مع أمها لزيارة قبر والدها

الذى لم يحضر لزيارتهم بالأمس كعادته كل شهر .. ظلت أمها فى انتظاره طيلة النهار والليل فلم يحضر .. لذلك قررت زيارته لتطمئن عليه ..

أثارت تلك الإشارات دهشة نادر وشك فى قدرته على فهم إشاراتها ، فأعاد سؤالها .. شرحت له من جديد .. أن بعض الآباء والأسلاف الطيبين ذوى الأعمال الحسنة إذا رحلوا يستطيعون العودة لزيارة أبنائهم، والاطمئنان عليهم لمدة ساعة تقريبا مع غروب أول يوم اثنين بعد بداية ظهور القمر .. وعندما كانت تنتظر زيارة أخوتها وأولادهم لأنهم يأتون جميعا من أول النهار ليكونوا فى استقبال باتيه في المساء رأت نادر يخرج من النهر ، نادته وأدخلته المخزن المهجور .. لم يحضر أبوها في المساء ، وأمها منذ الصباح تبكي . استيقظت دامي على غير العادة عند سماعها أنين أمها وصوت نحيبها، وفي الوقت نفسه أحست بالحركة في عريشة العنب فأسرعت إليه لتوقف الكارثة قبل أن يكتشف وجوده أحد.

لحسن الحظ فإن نانين أمها ، لم تعرف بوجوده ولم تحس بغياب ابنتها عنها .. كانت مشغولة بالراحل باتيه الذى لم يحضر فى موعده .. لعل المانع خير.

جلست في مقعدها الخشبى إلى جوار النافذة تخيط ثوبا وتفكر فى باتيه .. تواصل دعواتها إلى الله كي يأتى لزيارتها حتى تجف دموعها التى تنهمر ساخنة ، على الخدين المجهدين.

عادت إليه قبل العصر تحمل الغذاء .. تابعا حديثهما .. بدا نادر فى حالة نفسية أفضل مبهورا بقدرة دامي على التعبير بالإشارة، وتشكيلها للمعانى بأصابعها، حتى الأحداث والعلاقات ، ولا يفوتها في عز تدفقها أن تعلم نادر بعض الكلمات ، وكانت هي أيضا فرحة جداً بقدرة نادر الذى لا يعرف لغتها على فهم ما تحكى.. قالت له : ذهبنا جميعا إلى باتيه ووضعنا أمامه الزهور التى يحبها والتبغ الممتاز الذى كان يميل

لتدخينه . طلبت منه ألا يحزن إذا علم أن أباها باتيه همس لأمها: لم أحضر إلى البيت لأن به غريبا .. دهش الجميع لأن البيت ليس به غرباء..

قالت له إن نانين سألتها وسألت أخاها : وهل في البيت غرباء ؟ فنفى أخوها ونفت ، ودهشت نانين من كلام زوجها ، لكنها قالت :

– الراحلون لا يكذبون .. لابد أن هناك غرباء من البشر ، فليس من المعقول أن يقصد غرباء الحيوان.

شعرت دامي ببعض الأسى ، وقالت...:

– اشترينا ثوراً جديداً وحصانا منذ أسبوع وهما بالمزرعة .. ليتك تشاهد مزرعتنا إنها كبيرة ، بل هي من أكبر مزارع البلد .. لكن الظروف التي حكيتها لك تمنع من أى حركة . ثق أن هذا الوضع لن يطول ... إنها أزمة وستنتهي ..

قال نادر في نفسه : كل شئ يؤكد كذبها ..

أخذت الصينية وأغلقت عليه الباب ، عادت إليه بعد أن قطع المساء شوطا كبيرا في الظلمة .

بهرته بشكلها وردائها وجمالها وعطرها وخطواتها وتسريحة شعرها ، بل بلون بشرتها ، وبريق عينيها ، قال في نفسه :

– لابد أنها تستعين بالأعشاب والأدهنة والسوائل كي تحاول تغيير صورتها .. لم يعد لها عمل إلا أن ترتقي بملامحها لتبلغ مراتب أعلى من الجمال .. محاولات عنيدة لا تكل من أجل أن تأسرني وتستحوذ على وتنسيني ما عداها .

قبل أن تجلس بدأت شفتاها الفياضتان باللذة والجمال عملهما .. انحنت عليه ومنحته قبلة طويلة .. جلست وصبت من زجاجة في يدها سائلا داكنا في كأسين .. حدق في الزجاجة .. لم تقع عيناه على أى علامات أو بيانات أو أسماء لما في الزجاجة والشركات أو المصانع التي أنتجتها .. زجاجة

مـجـهولة وسائل مـجـهول تصـبـه سيدة مـجـهولة لشـخص مـجـهـول فى زمن مجهول ومكان مجهول وعلاقة مجهولة و .. و ..

مدت له الكأس ، تذوق ما فيه برشفة صغيرة ، قلب الرشفة في حلقه قبل أن يبتلعها .. استحسنها فأخلى سبيلها لتمضى إلى جوفه .

بقيت مـعـه نحـو سـاعـتين لم يفكر فى أى شئ .. كـان قـد اسـتـعـذب المشروبات ، واستعذب المرأة واستعذب اللحظة ونسى أغلب ما كان يؤرقه ويقتحم فكره.

تبادلا الحديث وتبادلا العناق وتبادلا القبلات وتبادلا السعادة ، وتبادلا الكلمات التى تعلماها حديثا .. وعادا فتبادلا العناق والقبلات واقتناص المتعة فى غيبة كل شئ .. فى غيبة الأهل والعيون والزمان، وفى غيبة البلاد وغيبة الفكر والحرية .. وغيبة السماء ، وغيبة الأيام المقبلة .. وغيبة الأسئلة .. عادا يتعانقان ويتلاثمان كطائرين فوق غصن شارد من شجرة مائلة على نهر تتقلب مياهه تحتهما وهما فى سكرة لا يدركان أن الشجرة تميل وتميل وتميل ..

قبل أن تغلق الباب عليه طلب منها الرجوع .. شملتها سعادة لأنه يريد أن يستبقيها .. عادت إليه .. قال لها بإشاراته :

– أرجوك .. ساعدينى على السفر إلى بلدى.

هزت يدها ساخطة فى وجهه مؤكدة أن ذلك سيتم حتما ولكن ليس الآن...

قالت : زم كاسر تف إى شاو.

أشارت إليه بالصبر .. ابتسمت له وابتسم لها وطلبت منه أن يقبلها لكى تستطيع النـوم ، فقبلها ومضت سـكرى وسعيدة بشكل لم تستشعره من قبل.

(٥)

نادر لا يعلم شيئا عما يجرى بالخارج فى طول البلاد وعرضها.. جميع الناس شيوخا وشبابا، رجالا ونساء وأطفالا يتحركون.. لا ينامون الليل ولا يستسيغون طعاما.. لا يمارسون عملا إلا فى النادر، الكل مهموم ومؤرق يستشعر الكابوس الثقيل يجثم على البلاد ويهدد مستقبلها.. لابد من تحرير السلطانة.

اقترح الكهنة أن تدخل المعبد، وبالذات الغرفة المقدسة حيث تمثال الإله الكبير لتعترف له وتضع تحت قدميه همومها وكل ما يؤرقها.. لم تكن تنام فى الأسبوع الأخير.. وقعت فريسة لأوهام وهواجس تهدد راحتها النفسية.. الموضوع لا يخصها وحدها، ولذلك فهى قلقة من أجل مستقبل البلاد.. سوف تتأثر منظومة الحكم جميعها بما هى مقدمة عليه، أمر حتمى كان لابد أن يتم .. الكل يلمس حيرتها.. لكم أرجأت موضوع الزواج.. لكن الوقت طال، والهمس كثير والقصص لا تنتهى والإشاعات، بلغ الأمر حدا لا تقبله..

أصبح بعض رؤساء الدول المجاورة يتقولون، والحاشية فى عديد البلاد تنسج عنها الحكايات، وهى فى الأغلب محاولة للتقليل من شأنها وضرب سمعتها الطاهرة التى أثارت الأحقاد والضغائن.. والتأثير على نهجها السياسى، ورؤيتها لدور الحاكم وفلسفة الحكم التى يجب أن تتمتع بها الشعوب خاصة التى تعيش حياة مشابهة وظروف مماثلة..

توفى السلطان المسن بينما كانت هى شابة يافعة تفيض حيوية، لم يخف السلطان مشاعره تجاهها.. كان يحبها حبا عميقا ملك عليه كل حواسه، إلا أنه فى مسألة الحكم لا يميل للأخذ برأيها فى أى قضية مع أنها مثقفة جداً،

وربما تتفوق عليه.. كان حريصا أن يؤكد لها احترامه لآراء المستشارين السياسيين أصحاب الفكر والاختصاص بحكم خبرتهم، لكنها تعلم أن ذلك ليس صحيحا، فهو الذى يحكم ويستبد ويسيطر ويحاول إبعادها عن التدخل فى أسلوبه السياسى الديكتاتورى المتشدد الذى ضجت منه البلاد والعباد.. كانت له آثار سلبية كثيرة على خطط التنمية فى هذا البلد الصغير الذى أكل خيراته رجال السلطان، ومنعوا أبناء الشعب من التعبير عن رفضهم طريقة الحكم وأدوات الحاكم التى لا تكف عن إنتاج الظلم بكل أشكاله.

فوجئت السلطانة منذ عامين بخبر إصابة السلطان بسرطان المثانة ولم يكتشف المرض إلا متأخرا ومن ثم بدأ العلاج والسفر.. اعترف الأطباء بفوات الأوان.. مرت أيام قليلة، انتهت بالموت وإعلان العزاء وتنكيس الرايات حزنا على الراحل الكريم.

عندما آلت السلطة إلى الأرملة الشابة «أوسة» تبدل حالها وفكرها تماما، آلت على نفسها أن تحقق للناس ما لم يحققه زوجها المستبد.. تخلت عن أمانيها ومصالحها الشخصية. عن أهلها .. عن زينتها التى تعودت الاهتمام بها.. عن أزيائها الفريدة التى كانت تتسلى بارتدائها.. عن دعوتها لسيدات رجال الحاشية والثرثرة معهن وإعداد الولائم لهن، وعن التنزه فى حدائق قصور السلطنة وعن ركوب الخيل والسفر للخارج و.. و.. كل شيء تغير لتعلن فجأة أن الحرية للشعب حقيقة لا وهم.. وفعل لا قول، وكل قرار لابد أن يحقق العدل لأكبر عدد ممكن.. وياويل من يحكم بالظلم حتى ولو كان من أهلها أو من أعز الأصدقاء. أصدرت توجيها عاما يتحمل الجميع مسئولية تنفيذه بدءا من السلطانة حتى الذى يشغل أدنى الوظائف.

العدل السمة الأولى لكل سلوك وقرار وحكم وتوزيع حصص وأنصبة.. بعد أيام قليلة من التنفيذ فوجيء الناس بالنتيجة الباهرة.. طاروا من الفرح، أصيب بعضهم بدهشة بلغت حد الهوس.. السلطانة مثل أقل واحدة فى

السلطنة وكذلك الحاشية والضباط والوزراء والجنود والقضاة وحكام الولايات والمحافظون.. العدل في المطعم والمأكل والملبس.. العدل في الثواب والعقاب.. في المنح.. في الفرص. في الامتلاك . في كل شيء.

أصدرت توجيها ثانيا يختص بإنزال العقاب الصارم بكل من تمتد يده إلى ما لا يملك.

أما التوجيه الثالث فهو أن من حق أى إنسان يحتاج إلى أى شيء أن يحصل عليه بالعمل الشريف، وأن يجد الفرصة المؤهلة لذلك، وفي حالة عدم توفرها، فالجهات المعنية التابعة للحكم عليها أن تساعده كي يحصل على ما يحتاج إليه، ويتعرض للعقوبة كل مسئول يتقاعس عن توفير احتياجات الناس الذين لا يجدون عملا.

هذه القرارات الثلاثة حققت نتائج مبهرة ومدوية ليس فى الداخل فقط، حيث حدث ما يشبه الذهول والفرحة الطاغية والإعجاب الشديد بالسلطانة إلى درجة العبادة، إنما فى الخارج أيضا حيث تعددت وجهات النظر واختلفت الاستجابات، ما بين مؤيد ومشجع، وبين مكذب، وبين مستهين، يتصور أنها مجرد كلمات وتصريحات للاستهلاك المحلى، وبين مستهجن يرى أنها قلة الخبرة وحداثة العهد بالحكم، ونقص الفهم الحقيقى لطبيعة الشعوب..

أصداء كثيرة هنا وهناك، أقل ما توصف به أنها أثارت الجدل والدرس والحوار على كافة المستويات على مدى العامين الماضيين منذ صدرت القرارات، ولم تكن صورة الدولة في الخارج تعنى السلطانة، ولكنها كانت معنية جدا بآثار قراراتها على شعبها، وقد لمستها وسعدت بها ووجدتها مطابقة بالضبط لما فكرت فيه وحلمت به إبان حياة زوجها.

لم تهتم بالخطب والأحاديث والاجتماعات.. اهتمت فقط بأن يحسن الجميع تنفيذ التوجيهات بوصفها المفاتيح الحقيقية لهناء الشعب وراحته.

وكانت فقط تقول.. إن سعادة الشعوب هى المصدر الرئيسى لسعادة حكامها.. والحاكم الذى لا يطمئن على سلامة وسعادة أفقر الناس ليس من حقه أن يظل فى الحكم يوما.

تزايدت الضغوط على السلطانة كى تتزوج حتى لا يقال إن لها خليلا أو خلانا، لكنها أرجأت المسألة كثيرا بسبب رغبتها فى تحقيق العدالة فى الاختيار من منطلق إيمانها بأن زوجها مهمته سياسية أيضا، ولابد أن يكون أفضل وأعلم الشباب. وليس مجرد رجل جلست معه صدفة فأعجبها وأحبته فوضعته على عرش البلاد إلى جانبها. الكرسى ملك الشعب وليس ملكها فإن لم يختره الشعب فعلى الأقل يجب أن تختاره بالعلم والموضوعية.

منذ شهرين أعلن فى البلاد عن رغبة السلطانة فى الزواج، ومن يرغب من الشباب يتقدم لملء استمارة طلب الخطبة الميمونة فى غضون أسبوعين.

فحصت الطلبات التى بلغت ١١٩١ طلبا.. استبعدت منها اللجنة حوالى ثمانمائة لمخالفة بعض المواصفات الخاصة بالطول والصحة والتعليم والثقافة، وعدم إجادة اللغات أو الألعاب الرياضية أو الشطرنج وعدم التوفيق فى الإجابة على الاستبيان المعد لهذا الغرض، ثم عقدت لجنة من الحكماء للقاء المباشر والحوار مع الباقين تحت سمع وبصر السلطانة دون أن تكون معهم وبقى سبعة عشر شابا هم خيرة شباب البلد ورجالها، كان من بينهم ثلاثة لا تعجب أشكالهم السلطانة، لكنها قررت أن تترك التجربة حتى النهاية ورأت عقد مسابقات عملية أخيرة بينهم فى كافة المجالات الثقافية والرياضية والشخصية فتفوق عشرة، كانوا هم الأفضل، وكان يتعين بعد ذلك أن تلتقى بهم السلطانة بالقصر واحدا فواحدا تمهيدا لاختيار أحدهم زوجا لها...

التقت بهم فلم تستطع أن تحدد أفضلهم، كان كل منهم يتميز بمميزات عالية وأصحاب ثقافة وشخصية وعلم وإدارة وحسن تصرف ولغات وممارسات رياضية مرموقة، وكان من بينهم اثنان أقل من الآخرين فى

جمال الشكل وتناسق الملامح.

لم يعد أمامها مجال جديد للتصفية ولا منهج لاختيار أحدهم، فدعت كهنة المعبد وعرضت عليهم الموضوع. الكهنة يحبونها جدا ويقدرون ما تبذله للناس، ويحترمون جديتها وطهارتها وسلامة كل ما يصدر عنها من سلوك وقرارات.

اجتمع الكهنة وتشاوروا فى الأمر عدة جلسات إلى أن انتهوا إلى ضرورة حضور السلطانة إلى المعبد ودخولها الغرفة المقدسة، وعرض الأمر على الآلهة والاعتراف بخلجات نفسها وشجونها، خاصة أنها لم تدخل المعبد منذ تولت السلطة.. كما طلب الكهنة كتابة اسم كل خطيب على شمعة كبيرة مشتعلة ووضعها أمام تمثال الإله الأكبر ليختار من يصلح لها وللناس . وسوف تنتهى عملية الاختيار عندما تنطفىء كل الشموع إلا واحدة.

من هو الذى قدر الإله أن يكون رجلي.. لا أود أن يتدخل قلبى فى البداية.. يامن تلومونني لأنى أغلقت كل أبوابه.. إن رجلى الذى يبتغيه عقلى وتأمل فيه روحي سيمتلك من الليلة الأولى شعرى وجسدى وأجنحتي وعطرى وانتظارى وحريتى ومجونى، غرائزى وجنونى .. شراهتى المكدسة.. أسلمه إرادتى وقرارى.. مرحى وفرحي وأسرارى، ورودى وكنوزى.. أحضانى ودفء قلبى.. أقصى ما أستطيع استبقاءه لى هو حكمتى وصبرى.

أنا لست أنا فقط.. أولا شعبى وأنا بعده فمن يقبل تلك المعادلة؟ ومن يقدر على تنفيذ ما أتمنى أو يسعى مخلصا إليه.

ما بنيته للشعب خلال عامين، ليس من العدل أن يدهسه جنون الزوج خلال شهرين، ولا تتبدى سراديب النفس إلا بعد شهور من العشرة والاندماج فى بوتقة الحياة المشتركة . ليس ما أجريته من اختبارات إلا مجرد تذاكر لركوب السفينة وبدء الرحلة. ولن تتكشف العقد والنواقص إلا بالمعاملة والوقوف على نصل المشكلات، ومواجهة أسنّة المواقف الصعبة،

والحيرة في مفارق الطرق وتحت ضغط اللحظات المصيرية.

الزواج من أسوأ شركات الحياة لأن عقوده تكبل أطرافها قبل أن تتضح النوايا والأفعال.. تثبت القيود أولا ثم تبدأ القشور فى الانفصال عن اللب قشرة بعد أخرى، وحالتى مختلفة.. أنا على رأس جماعة أتولى الأمانة ولكنىّ مرئية.. محسوبة ومحسودة، معدودة ومرصودة.

فهل يساعدنى الرجل المختار على أن نواجه يدا واحدة.. الفقر والظلم.. الجهل والتخلف .. الحقد والضغينة؟.. هل يعيننى كى ينتشر العدل ويستتب الأمن وتحلو الأيام، ويحب الناس الحياة بعد أن أكلت حقب كثيرة من لحومهم وأعصابهم وأعمارهم وأحلامهم؟.

لقد عانى الشعب طويلا من ظلم الحكام وغدر الأيام وعصف الطبيعة.. وجمر الظروف، فخلفت لهم التعاسة والحقد والقهر واليأس وفقد الإيمان بكل شىء، فهل يمكن أن يشد الزوج أزرى كى نحى الضمائر؟.. ننفضها ونحملها فوق رؤوسنا ونصب أعيننا ونقبل ما تشير به فى كل الأمور.

وحدى وإن طال الزمن أستطيع أن أحدث التغيير المطلوب، لكن الزواج شر لابد منه. فكيف تراه يارب يكون؟

أتمناه متواضعا، عطوفا، خال من العقد. عليما وحليما.. بسيطا وحكيما.. صادقا وأمينا.. عاشقا للثقافة.. صاحب روح شفافة.

وصلت السلطانة فى الموعد المحدد وكان صباح الأحد.. تستقل كارتة يجرها بغلان، تتبعها كوكبة من العاملين بالقصر.. الحرس الخاص فى أرديتهم الزرقاء.. استقبلها رئيس الكهنة بالترحيب ومعه الكهنة ومعهم مجموعة من الأطفال تحمل الورود.. نثر الكهنة عليها قطرات من الماء المقدس .. نثروا فى طريقها وأمام قدميها لتحفظها الآلهة من كل شر وتوفق خطاها.

عبرت البهو الكبير ووقفت أمام الباب الحديدى القصير للغرفة المقدسة

وتلا الكهنة بعض التراتيل والآيات المخصصة لمثل هذه المناسبة.. انحنت السلطانة حتى اجتازت باب الغرفة الذى قصد من بنوه أن ينحنى له داخلوه. كان رئيس الكهنة قد أشار عليها أن تخلع الحذاء بعد أن تأكد أنها لم تحمل أى جواهر معدنية، كما طلب منها ألا تتعطر بأى عطر دنيوى، ولا تضع على وجهها المساحيق أو على شعرها الأدهنة وتأتى صائمة وفى أبسط الثياب..

صلت السلطانة ما أمرها به رئيس الكهنة من صلوات ورتلت بعض التراتيل، ثم بدأت وهى جالسة ومنكسة الرأس تعرض حالها وما تعتزم فعله وما تخشاه وما تتمناه لنفسها ولأهلها ولشعبها، وأن يحمى البلاد من الأعداء وخاصة دولة «بيرام» المجاورة التى لا تفتأ ترسل الجواسيس والعملاء لبث الفتنة وإثارة القلاقل والإساءة للممتلكات الوطنية.. طلبت أن تعاونها الآلهة لتحقيق السلام والأمن، وألا تضطر لشن الحرب على أحد أو التصدى للمعتدين وأصحاب النفوس الضعيفة..

عبّرت عن أملها أن يكون شعبها أفضل حالا خمس مرات على الأقل، وألا يكون هناك جائع ولا مريض ولا عاجز ولا محتاج وأن.. وأن:

– جئت إليك يا إلهى.. أبثك همى وأبسط تحت عينيك ما يشغل بالى وأنا بين المطرقة والسندان.. تمنيت أن أظل مستقلة. لكن الألسنة فى الداخل والخارج لا ترحم، وأنا امرأة.. فانظر ماذا ترى وأنا مستسلمة لمشيئتك. كما أدين لك بالخلق أدين بالهداية.

واصلت حديثها الذى ليس من السهل أن تكشف جميع جوانبه لأحد من الناس.. ولما انتهت صلت بعض الصلوات ورددت بعض الآيات وتقدمت فأشعلت الشموع العشرة.. نظرت إليها.. نظرة أخيرة لترى أنها كلها متساوية فى الطول والسمك والارتفاع، تمنت على الآلهة التوفيق ثلاث مرات.. وقبل أن تنهض سمع الجميع صوت ارتطام عنيف ورأى المشهد الكهنة الذين كانوا يجلسون فى جانب من البهو .. ذعرت السلطانة

واندهشت .. كان حجر كبير في ارتفاع جدار قد سقط أمام باب الغرفة المقدسة.

أسرعت السلطانة إلى الباب الحديدى القصير.. الحجر يسد عليها كل المنافذ ويحول بينها وبين الخروج.. أسرع الحرس والكهنة ينادونها.. ردت عليهم في اضطراب وطمأنتهم على حالها.

لم يكن في الغرفة أى منفذ آخر، اللهم إلا ثلاث فتحات بالسقف لتمرر الضوء، كل منها بحجم رأس طفل.. حاول الحرس دفع الحجر فلم يعبأ بهم ولا اهتز شعرة.

أصاب الذعر الكهنة.. طلبوا من رئيس الحرس دعوة أكبر عدد من الحرس والناس.. حضرت أعداد كبيرة.. حاولت دفع الحجر الضخم بكل السبل.. لم يتحرك . توالى حضور من بلغه النبأ ليدفع الحجر دون جدوى. وكل منهم يحاول الاطمئنان على السلطانة، ويأخذه العجب من الموقف.. الصعب الذى لم يسمعوا بمثله.. كل الوجوه مبللة بالتيه والحيرة يحدقون فى الصخرة ويلعنونها .. تترقرق فى عيونهم قطرات الأمل والإشفاق وتدق قلوبهم طرقات التوجس من المستقبل. أمر الكهنة جماهير الشعب أن تجلس خارج المعبد وتتوجه إلى الآلهة بالدعاء لتفريج الكرب وإزاحة الغمة.. لو لم يتحرك هذا الحجر. ستكون كارثة.. كيف تعيش السلطانة بالداخل.. أى بلاء نزل بالبلاد وأى اختبار للعباد؟

اختار رئيس الكهنة أحد رجاله ليصعد فوق الغرفة ويتحدث من الفتحات العلوية إلى السلطانة، يطمئنها أن البلاد عن بكرة أبيها تجمعت ولن تغادر مكانها إلا ومعها السلطانة «أوسة» الحبيبة.. تعالت هتافات الناس بحياة السلطانة واستعدادهم لافتدائها بالنفس والنفيس.

اجتمع الكهنة من جديد لبحث الأمر، خاصة أن المشروبات والأطعمة التى يتعين توفيرها للسلطانة كان ممنوعا دخولها إلى الغرفة المقدسة.. وقد حضر

الكثيرون ومعهم الطعام والشراب.. انتهى الاجتماع بعد الاتفاق على أن يتم تزويد السلطانة بأقل القليل، وصعد الكاهن وأبلغها اعتذارهم عن عدم قدرتهم السماح بأن يقدموا لها كل ما أحضره الناس من المؤونة، وسيكون ذلك فى نطاق ضيق جدا وأول الرسائل الغذائية كانت بيضتين مسلوقتين بلا قشر وقطعة جبن وكوبا من الماء.. موزتين بلا قشر وهكذا لا تبقى فى الغرفة ذرة واحدة من المهملات.. طلبت السلطانة ألا يقدم لها شىء آخر إلا بعض الماء إذا طال الموقف لعدة ساعات.

جاء خطابها العشرة وأهلهم والأصدقاء.. حاولوا مع الحجر الذى تشبث بإرجاء النهاية . وقفوا برؤوس منكسة ووجوه كئيبة كفاية من الخذلان. اندفع آخرون.. وآخرون.. ظلت محاولات دفع الحجر متواصلة بحماس ولهفة دون جدوى برغم الدعاء المتوالى الذى يتصاعد من القلوب، ورغم هتاف الرجال وبكاء النساء، أما الأطفال فكانوا يركضون بعضهم وراء بعض فى كل اتجاه سعداء بتجمع كل هذا العدد وبأن مناسبة كبرى تتم، وأن أحداثا مهمة على وشك الوقوع.. ولما حل المساء رفض عدد كبير من الناس العودة إلى منازلهم.

عند ظهر الاثنين طلب رئيس الكهنة أن يجتمع الكهنة من جديد وفى صمت لتأمل وبحث الوضع، وبعد ساعة قرروا الاعتماد على العلامات المقدسة والإشارات وكتب السلف، وغيرها للتعرف على الحالة وأسبابها فوق البشرية.

بعد العديد من الإجراءات تبين أن الكهنة كلما وضعوا علامة فى قدر الماء المقدس ظهرت عين كبيرة على سطح الماء، وهذا يعنى، كما قالوا جميعا فى صوت واحد: أن غريبا بالبلد.. شخص غير مرغوب فيه دخل البلد. اعتقد البعض أنه من بيرام. ونفى البعض ذلك واقترح البعض التوقف عن إصدار الأحكام، والاكتفاء بالبحث.. ودهش البعض لأن الغرباء كم دخلوا البلاد فلم

يحدث أن سقط حجر، ولم يحدث أن وقعنا في هذا الشرك أبدا.. واستبعدوا أن يكون هناك غريب، وحتى لو كان فلا علاقة..

أسرع كل أفراد الشرطة للتفتيش عن الغريب، واشترك معهم أفراد عاديون.. داروا في الشوارع والأزقة والساحات والحدائق العامة ومختلف الأماكن إلى أن عثروا على مرتبة نادر وبطانيته التي لا يزال النمر عليها مطبوعا ومختبئا. حملوها على عجل إلى الكهنة، فأعلن أغلبهم رضاه عن صدق حدسه ودقة حساباته، ومن ثم تأكد وجود الغريب، وعين حارسان لحماية الأحراز داخل بهو المعبد.

اجتمع الكهنة من جديد لبحث الأمر، وكان السؤال هو : ما العمل إذا قبض على الغريب؟. طلب البعض مهلة لإعادة القراءة واستلهام الروح، وبعضهم طلب عمل زيارة لمقابر الأسلاف الممتدة خلف المعبد.. وافق الجميع على هذه الفكرة.. حملوا المياه المقدسة ومضوا إلى المدافن.. نثروا بعض قطرات من المياه على كل قبر وتلوا الصلوات وطلبوا المساندة، وعادوا ليجتمعوا في قاعة الأسلاف التي يحتفظون على جدرانها ببعض الأشياء التي تركوها ووهبوها للمعبد كي تكون رابطة دائمة بين أرواحهم والأماكن المقدسة..

بعد ساعة من التراتيم وساعة أخرى من التأمل قال رئيس الكهنة: الحجر الساقط يعاني من ظمأ شديد ولابد أن يذبح الغريب وتصب قطرات دمه على الحجر فيتحرك وينفصل عن الغرفة المقدسة.. أيقن الجميع بصحة كلام الرئيس واتفقوا علي ضرورة تنفيذه، ومن ثم صدرت الأوامر المشددة بتفتيش البلاد من جديد بحثا عن الغريب.

كان أكثر الجميع حماسا خُطّاب السلطانة العشرة وأهلهم وأصدقاؤهم. امتطوا خيولهم والكارتات وانطلقوا يبحثون، رغم أن بعضهم قدأصابته التعاسة بعد علمهم بأن جميع الشموع قد أطفئت وسالت ولم تبق منها غير

الدموع مكومة حزينة.

طلبت السلطانة ألا يزعجها أحد بالكلام إلا عندما تكون ثَمّ مشكلة خاصة بالحكم أو بمن ظُلم. كما طلبت العمل على تكتم أخبار سجنها، فهى وإن كانت تعلم أن أى حدث مهما حوصر بالكتمان لا يبقى سرا ويفشيه في العادة من طلب إليهم أن يدفنوه إلا أنها لن ترتاح لما ينسج من قصص وما تلوكه الألسنة من حكايات.. اقترح رئيس الكهنة عليها القول بأنها تعتكف.. تخلو إلى نفسها فى الموضع الطاهر تحت قبة الإله الكبير وبالقرب من الأسلاف حيث ترعاها أرواحهم .. لم تعلق.

طلبت من كل المسئولين التنبه لأعمالهم، وعلى كل قائد فى موقع ألا يغفل لحظة وأن ترفع حالة الطوارىء، فالمتربصون لا زالوا كثرة.

عادت فى خلوتها تفكر فى الخطيب الذى يقع عليه الاختيار أيا كانت الوسيلة..

– الأفضل أن تبقى الخطبة ستة أشهر أدفعه خلالها عبر الأسلاك الشائكة ويتولى الحكم بين المتنازعين تحت عيونى.. وماذا لو فشل؟ هل نصرفه، ونجرب من يأتى بعده فى الدرجات؟ .. أرى أن تكون المدة ثلاثة أشهر، وإذا حالفه التوفيق اخترنا من حاز الدرجات الأعلى بعده.. الأمر عسير.. لكن ما أحلى أن نسعى دوما للمثل الأعلى. الحياة كلها حقل تجارب، ولن نجرب ثانية تجربة حالفها الإخفاق.. هذا هو الفارق بين الإنسان وبين الحيوان.

المشكلة الآن ليست فى الزوج الموعود.. ولكن فى الحظ التعس.. ماذا يعنى ما أنا فيه؟ لا أفهم سر المأزق.. أقدار تعبث.. والأغرب أنى فى أحضان الرب وأقرب شخص إليه وتسد فى وجهى الأبواب.. أنا من وهبت وقتى كله للناس وللخير وللحق.. ماذا جنيت لأسجن فى غرفة ليس لها الآن باب ولا نافذة إلا الفتات.؟ أنا واثقة من ربى وبعملى.. لا أحسب أنى يلحقنى

الشر، لكن أليس غريبا ما يحدث؟ بل أغرب ما يمكن أن يحدث.. ليس غيرك ياربي بيده الحل.. هلمى إليَّ يا أسلحتي الروحية التي لا تنفد.. حكمتي وصبري..

سؤالي الذي لا سؤال غيره: من الذي فعل هذا وما الغرض.. ما الهدف؟.. وبرغم كل شيء فقلبي قوي ثابت كالحجر اللامع في النهر.

اقترح البعض الاستعانة ببلدوزر لدفع الحجر، وتساءل البعض عن كيفية الدخول، وأجاب أصحاب الاقتراح بهدم سور المعبد الأمامي.. ورفض الكهنة ذلك.. أولا لأنه لا يمكن المساس بالمعبد بأية صورة، وثانيا أنهم واثقون من الحل خاصة بعد أن تأكد وجود الغريب، ولن ينقضي غير يومين على الأكثر حتى يمسك به الجنود ويتم ذبحه وإزاحة الحجر بعد أن يشرب الدم.

كانت جموع الشعب قد أصرت على البقاء ليلا ونهارا خارج المعبد.. وقام فجأة من اخترق ضباب الكآبة ومضى يقلد مشية الفهد وحركات القرود فضحك الأطفال أولا وتجمعوا، ثم ضحكت النساء واستنكر البعض من الرجال ذلك، استنكر بعض آخر أقوال المستنكرين واستمر الشاب المرح يقلد ركض النعامة، وصوت عجل البحر والعصفور والغراب وبعض الزعماء، والناس يضحكون، بعضهم دمعت عيناه من الإعجاب، وانقلب بعضهم علي الأرض وضرب كفا بكف، وبلغ هذا السلطانة فقالت دعوهم.. يكفي أنهم إلى جانبي، لا تقيدوا حريتهم.. ادفعوهم إلى المزيد..

بعد ليلتين من استيلاء الحجر علي السلطانة والسلطنة، هجم على القصر «أوتا» شقيق السلطان السابق الأصغر ومعه رجاله، وتولى الحكم ساعات الليل إلى ظهر اليوم التالي حتى تمكن الحرس والقادة من رجال الجيش والشرطة من القبض عليه وعلى زملائه وإعادة السيطرة على مختلف ربوع المملكة.. بلغت الأخبار السلطانة فقالت: إنه العدل.. العدل يحكم وحده ويحمي الجميع مهما كانت شراسة المعتدين وخستهم.. رحبت بما أنزلوه إليها من طعام وحافظت تماما على الغرفة المقدسة.

(٦)

بعد أن جلس وحيدا في غبار الضوء.. فكر فيها وعزم أن لا يجاريها.

قرر أن يتجنب شفتيها ويعصى عيونها، ويتلاشى أن تلمس بدنه بحرير جلدها الناعم، ولن يسمح لسيول شعرها أن تجرفه وتغرقه. ويسد الطريق أمام خيولها الجامحة. سيطفىء في جسده كل مصابيح الغرائز..

لا جدوى من كل ذلك إذا كانت جائعة فليس جسده الوليمة التى تقيم الأود.. تحسب أن لديه السقف الذى تغطى بها صحاريها.. لها أن تعلم أن ما لديه ليس إلا العشب النابت في البرارى وحفاراتها العقية لن تُخرج من أرضه ما تشتهى من ثروة، وتتمنى من مؤونة، يكفيها شم نسيم رجولته والاستمتاع بعبير شبابه الريان ولمس خدودها لأعشابه النضرة.

لقد وجدتك أيها الشارد بين الوحل والشوك فتبنتك. ليس إشفاقا عليك ولكن لعل همسك. همسك فقط يفتح طاقة من نور فى أبهاء الروح المعتمة، وأنت الآن محاصر بالمعصية والغرائز تستمرىء المتاح وغير المتاح.. أنت متواطىء فاعترف، أما هى فتثق أن ما تدعوك إليه وما تقترفانه فى الوكر المهجور وهم وسراب، ومع ذلك تؤمن أن هذا الوهم ألذ من الحياة وأن ذلك السراب أقوى من الموت.

كان الضوء مختبئا وراء الستائر، مشفقاً عليه من الصحو أو يخادعه، خظف الطائر المميز خطفته الصوتية.. طفت على سطح الوعى مزق من الأحلام والكوابيس .. تذكر أنه استيقظ عدة مرات فى الليل على لمسات حانية تتمسح بقدميه وساقيه وصدره ويفوح عطر أنثوى فاغم .. يصحو ولا يجدها والباب مغلق من الخارج.. يعود إلى فراشه ولا يلبث أن ينام ويعد

فترة، لا يدرى أطويلة، أم قصيرة يوقظه اللمس الناعم وتداهم أنفه وحواسه سحائب العطر الأنثوى، فيتلفت بحثا عنها ويؤكد له الباب المغلق أن أحدا لم يدخل إليه.

تذكر أن الرياح طوال الليل كانت تطوف البلدة.. تجوس خلال الشوارع وترج الأبواب والنوافذ بقليل من الغضب.. صوتها مفعم بالألم.. عما كانت تبحث؟ لابد عن أطفالها فالجزع المكتوم الذى كان يتسرب من بين شفاهها المحمومة كان مثل أوجاع أم فقدت فلذات أكبادها.. لكن الريح في الوقت نفسه كانت تكنس الأمان والدعة. وتذكر أنه رأى سهاد وفي عينيها دموع، تعاتبه لابتعاده وغيابه الذى طال، وما كانت تظن أبدا أن تراه بين أحضان غيرها، فإذا هو متلبس بتقبيل دامي.. وتتصاعد ثورتها لأنها لم تسمع عن ذلك أو حكاه الحاقدون أو العزال بل رأته بعينيها.

– لا ياسهاد.. لا تسيئـى بـى الظن، فحبك وطنى، أحمله فى قلبى أينما ذهبت.. أحبك حبا مختلفا وعـزيـزا ورائعا وأثمن عنـدى من كل حب، فـاطمـئنى.. لا أرى غـيـرك.. أحـبك حين أمـوت وحين أبعث حـيـا.. اطمئنى.. أنت الحجاب الذى كتبه الله لأعلقه دوما فى روحى وعلي بدايات شراييني. فتجاوزى عن بعض الألعاب الصغيرة، وتأكدى أنك تنامين تحت جلدى .

اتجه مباشرة إلى السجادة التى تغطى النافذة.. انتزعها وألقاها بقوة ذراعه إلى حيث لا يهمه أن يعلم. لقد تحمل أكثر مما يمكن أن يتحمله إنسان..

هل ثمة فارق بينك وأنت فى الكهوف محاصر وبينك عندما كنت على الماء حرا طليقاً؟.. أنت على شفرة السيف الذى يقع بين موت وموت، ليست أمامك فرصة حتى الآن لترقع أى شىء.. كل شىء فى يديك ممزق.. اللعنات تدهمك في ثوب الخوازيق..

فتح النافذة ربع فتحة.. كانت أفواج من الرجال تمضى مسرعة، بعضها فى إثر بعض، تدق الأبواب وتفتح النوافذ.. هرج ومرج.. أغلق النافذة وعثر فى الصينية على حبة أناناس كبيرة فشرع فى التهامها، وتساءل: لماذا لم تحضر دامى؟ وماذا إذا لم تحضر البتة؟ ليتها تفعل؟.. هذا ييسر المهمة، سوف أسرع بالفرار دون أن ألوى على شيء، فقد طفح الكيل.. وتحاصرنى بالكذب والطعام والأحضان الجائعة.

وضع البراد على النار.. مارس التمرينات الرياضية.. وضع الشاى والسكر وعاد يمارس الرياضة بلهفة وحماس.. كان غياب دامى له حضور قوى إلى درجة إثارة الغيظ.

اغتسل وجلس يشرب الشاى.. ها هو الطائر الموهوب.. يذكرك بالزمن الذى ضل الطريق معك، هذا الطائر الغريد يختطف صرخته ويبعثها إليك كل ساعة لينقر لك حائط النسيان.. فهل تتذكر أحدا من وجوه ماضيك.. والماضى وطن. أم تراها تاهت حدائق الأوطان فى برارى الفقد التى لا تبدو لها نهاية.

– سأنتظر صرخة الطائر القادمة وبعدها سأفر من هذا السجن اللعين ولن أنتظر دامى أو أحفل بغضبها.

بدأ نادر يشعر بالملل.. فلا تسلية ولا عمل.. دار فى القاعة. وقعت عينه على الكراتين التى فى الركن.. فتح بعضها.. وجد ملابس قديمة مطرزة. عندما أمسك طرفا منها تحللت فى يده إلى تراب. فتح كرتونة أخرى وجد بها عقودا خرزية ملونة كثيرة، وفى كرتونة أخرى تماثيل خشبية لوجوه بشر وحيوانات.. دقيقة الصنعة لم يصبها البلى على أى نحو.. تمنى أن يأخذ بعضها.. كرتونة بها كتب.. فتح بعضها.. كانت تتحول مثل الأقمشة إلى تراب. حاول أن يفهم بعض ما ورد بها فلم يفلح.. تركها ووصل إلى صندوق كبير عليه أحزمة معدنية تصور أنه يهتز ويكاد يسمع خبط ما فيه، مد يده

ليفتحه فإذا دامى تفتح الباب وتدخل حاملة صينية طعام وتعتذر له لأنها لم تستطع النوم إلا الفجر.. رغم أن البلد هائجة. والكهنة ورجال السلطان «هكذا فهم» يبحثون عن الغريب الذى هو نادر، تناول قطعة من الجبن وثمرة طماطم وملعقتين من البطاطس المسلوقة. وكوبا من العصير الذى لم يعرف نوعه.

قال لها: بعد قليل ستسمعين صوت طائر يصرخ بسرعة كل فترة تكاد تكون منتظمة.

بعد أن انتهى من طعامه أشارت له بأنها تريد أن تتحدث إليه حديثا ذا أهمية ولابد أن يعرف سر ما يجرى بالخارج.

أوضحت له أن سلطان البلاد مات، وكان متزوجا من «أوسة» ابنة عمها، وهى الآن سلطانة البلاد .

امرأة مغرورة وكاذبة تضحك على الناس وتخدعهم، كما أنها ليست جميلة وماكرة استطاعت أن تحقق مجدا زائفا، تقدم عدد من الرجال لخطبتها فاقترح الكهنة أن تدخل المعبد لتسأل الإله المشورة. سقط حجر ضخم أمام الباب وهى الآن مبحوسة. إلا أن الكهنة المنافقين قالوا إن هناك غريبا دخل البلاد ولابد من ذبحه وصب دمه على الحجر، يتحرك وتخرج السلطانة وهم الآن يبحثون تحت كل شجرة وفى كل بيت.. أرجوك لا تفتح الباب.. لقد عرفوا أنك في البلد، فقد عثروا على أشياء تخصك مثل مرتبة وبطانية ووضعوها بجوار باب المعبد.. أرجو ألا تفتح الباب. أرجوك أن تصدقنى.

قال لها : ساعدينى على السفر.. علي الهروب.

قالت : الطريق غير آمنة الآن.. أصبر حتى الغد.. بل حتى الفجر، وعندئذ سأساعدك على السفر.. وسوف أكون معك.. لن أتركك أبدا.. إما أن تبقى هنا معى أو نسافر سويا.. لن أسمح لأحد بالوصول إليك. سأحميك بكل

وسيلة.. سأضعك في عيونى وقلبي.. أنت لا تعلم كم أحبك.

عندئذ ترقرقت دموعها وارتعدت، فعانقها وربت على ظهرها ومسح دموعها.. نظرت إليه بأسى ولوعة وأمل يطل من أعماقها.. وود لو يستطيع أن يرضيها .. أمسك يدها.. كانت دافئة وناعمة ومسكينة كحمامة توشك على الموت.. أشفق عليها.. كانت لاتزال ترتعد.. تراجعت وهي تسحب يدها متجهة نحو الباب. عندئذ سمع الطائر يصرخ صرخته.. حاول أن يقول لها شيئا عنه.. لكن صوته لم يكن هناك .

(٧)

الأيام تتوالى والشعب كله يعانى حالة من عدم التوازن، فالسلطانة المحبوبة أسيرة ، والغريب فى البلد طليق، ولا أحد يعرف عنه شيئا البتة. كلام الكهنة صادق ومصدق.. السلطانة لا تنطق، تثق فى قدرة الكهنة والشعب على إنقاذها.. قررت الصيام إلا عن الماء . طلبت أن يلقوا إليها ببعض الكتب المقدسة ونصحت بسؤال أكبر الأحياء.. مينوت .. الرجل الذى يقرأ الأسرار .. أمر بجمع عشرة من أغصان شجر السرو وقدر به ماء بحر وتشعل تحته النار وفيه توضع ضفدعتان وسبعة من أنياب تمساح شاب لم يبلغ بعد، وسبع ريشات من ببغاء أحمر وبيضة نسر أفريقى وبعض الأعشاب ولسان أفعى حية.. بعد الغلى لمدة ساعة ارتفعت أنياب التمساح وهبطت ريشات الببغاء، وقال مينوت . غريب فى البلاد قادم من مناطق بعيدة، لا يظهر القمر ولا الشمس عندنا وعندهم فى وقت واحد ..

رئيس الكهنة يدخل بوقار فى ثوبه الرمادى المصنوع من الكتان المقصب وموشى على أطراف الأكمام بزخارف سوداء.. نظراته جامدة.. تكاد تخلو من أى معنى .. ينظر إلى الناس دون أن يراهم .. روحه وسمعه وقلبه مع الملائكه التى كانت تنقل له رغبات الإله الأكبر .

أما الاستياء الذى كان يتجول فى أعماقه فلم يستطع بجموده أن يمنعه من أن يحلق فوق جبهته غير المقطبة .. كان رئيس الكهنة هضيم الوجه، نحيل القد ذا عنق طويل وجبهة بارزة وعيناه واسعتان .. لدرجة الرعب .. رجل يبدو كأنه يعيش فى غير زمنه.. الكهنة من ورائه ينظرون بتأفف واضح إلى الجموع الغفيرة التى تقيم إقامة كاملة حول المعبد.. يهتفون بحياة

السلطانة .. المشهد غريب ورائع .. مئات الأفراد رجالا ونساء يعيشون حول المعبد.. يأكلون ويشربون وينامون .. الأولاد من حولهم يركضون ويلعبون .. عندما يحل المساء .. تضاء المشاعل.. الجماعات تتقارب.. جرى العيال يخف .. تتسلل النيران من تحت المواقد لتتراقص مع النسمات .. ينهض الشعراء ، واحد بعد الآخر يلقون قصائد المديح في السلطانة وعهدها. وبين كل شاعر وشاعر عازف على آلة موسيقية وأغنية تعدد محاسنها .. وملكاتها وأفعالها.. بمرور الوقت أصبحت هناك أشعار وطنية وعاطفية وأغان عن الحب والشوق والهجر وعن الطبيعة.. وظهر شعراء السيرة يحكون سير العظماء الراحلين...

إلى جانب سور المعبد اتخذ الحلاقون أركانا، وإلى الأمام منهم اصطف باعة العصافير المذبوحة والضفادع والمأكولات والفول السودانى المكمور، والدوم وجوز الهند والمرايا الصغيرة والسيوف الخشبية وتماثيل الحيوانات، وينس الشعر والأمشاط وصور السلطانة ولعب الأطفال، والقرون بكل أحجامها والشباشب والأقنعة وسلال الغاب والملابس والعقود والأساور البلاستيكية والحبال والأكلمة والبخور وزجاجات العطر، ومراهم مختلفة لعلاج الروماتيزم والجرب والتهابات الجلد ونزع الشعر وأدهنة الشوارب، وكتب تحوى حكم الأسلاف، وعلى مقربة يجلس رجل معه ثلاث سلاحف.. مضى يصف لها في صوت منخفض كل ما يجرى وأمامها وضع فتات الخيار ..

في عصر اليوم الخامس يخرج رئيس الكهنة ، ثائرا على غير عادته يطلب من الجموع مغادرة حرم المعبد -الذى أصبح أسوأ من السوق، وتحول إلى سيرك ومجال للهرج والمرج- للبحث عن الغريب الذى تأكد أنه مصدر الخطورة، انتهت كل الآراء إلى ذلك وقبلهم جميعا «مينوت» الذى يقرأ الاسرار، ويستطيع أن يتحدث إلى الأسلاف بحكم سنه إذ تجاوز المائة.

– لابد ألا تبقى طوبة واحدة فى موضعها .. الموقف يسوء وحالة السلطانة لا تسر أبدا، والبعض يلوذ بالصمت وينام مطمئنا لمجرد أنها لا تزال حية. هذا أمر لا يليق بنا .. عار علينا أن نعيش أحرارا ونترك السلطانة عرضة للموت. وتعانى الآن مرارة الحبس.. وسوف يقول الإله كلمته في الوقت الذى يراه مناسبا ..

دامى وأخوها الصغير كانا هناك، تركت أمها نانين تصلى من أجل أن يذهب الغريب ويعود باتيه إلي البيت وأن يظل به .. لا معنى للحياة بدونه..

رأت دامى كيف اندفع الجميع للبحث عن الغريب.. انطلقوا فى كل اتجاه ولديهم صلاحيات منحها رئيس الكهنة بأن يفتحوا كل الأبواب ويقلبوا كل الأشياء .. كان كثير من الرجال قد اعتلوا الأشجار وصعدوا الجبال وحدقوا ، وتسلل العسس والعيون إلى كل مكان بلا نتنيجة .. والآن لا يبقى أحد فى بيته ولا فى الساحة.. أسرعت دامى فأخرجت نادر وأخفته فى مخزن الذرة ثم هاجمتها الهواجس من دخول الجند إلى المخزن، فعادت وأدخلته مزرعة البقر....

خاضت به فى الروث والروائح الكريهة وأمرته أن يختفى فى التبن، ووقفت تراقب الحركة بالخارج.. لكنه كاد يختنق فأطل برأسه ومضى يقذف التبن من فمه وأنفه وعينيه وأذنيه.. .. رأت أن تعود به الى القاعة.. هناك يمكنه أن يختبيء فى دولاب أو صندوق أو تحت السرير.. عادت ترفض الفكرة .. رأت أن ينبطح فوق عريشة العنب ثم عادت ورفضت الفكرة لأنهم سيشاهدونه من شرفة البيت التى تطل على العريشة، وفكرت فى أن يلبس ملابسها، لكنه طويل وعريض وذراعاه وساقاه يصعب تغطيتها ..

هى لا تعلم من أين يبدأ تفتيشهم .. طلبت منه أن ينظر إليها وهى تقف هناك فى مواجهتهم عند الباب، فإذا أشارت إليه دفن نفسه على عجل فى التبن.. طال وقوفها دون أن يظهروا.. طلبت إليه أن يتحمل ..

قال لها : يمكن أن أختبىء في صندوق من صناديق القاعة المهجورة .. فهمت ما يقصده فتحركا نحو القاعة ، وعند بابها الغربي البعيد ظهر رجال السلطانة.. أسرعت إليهم لتعطل موكبهم.. فتشوا تحت الأبقار وفي المزاود .. اندهشت لرأى نادر لأنهم فتشوا التبن ومرروا فيه أعواد الخشب وجسوه بأسياخ الحديد، وانتقلوا إلى العريشة ثم القاعة.. قالت لهم أنها مهجورة منذ سنوات وأنتم تعرفون ، طلبوا تفتيشها .. قلبها يدق بشدة كما لم يدق أبدا.. مضطربة تتعثر فى مشيتها وكلماتها ..

الجميع يطلون فى كل ركن ويفتشون حتى الملابس المعلقة ويبحثون عن الآثار.. أيقنت دامى أن نادر دخل الصندوق المغطى بالأتربة والعنكبوت . لم يعثر المفتشون على أى أثر للغريب .. ومع خروج أخرهم ودامى وراءه ممسكة بالباب تتعجل إغلاقه، دوت صرخة عالية طالعة من قلب المكان . اندفع الجند عائدين .. ويصرخ الرجل صرخة ثانية أكثر عمقا وألما.. يتقدم الجند على الفور نحو الصندوق.. يفتحونه فإذا فيه رجل غريب وثعبان ضخم يطلان معا، وفى لمح البصر تنطلق رصاصة بندقية رجل الشرطة، فى أعقابها رصاصة ثانية وثالثة فى رأس الثعبان الذى لم يترنح إلا مع الرابعة ، وتسقط معه رأس نادر مغشيا عليه، فيحملونه .

تقف دامى فى طريقهم حتى لا يأخذوا نادر ، تصرخ .. ولأنهم يعرفون إنها ابنة عم السلطانة يعاملونها بالحسنى، ويحاولون توضيح خطورة الموقف وخطورة تركه وخطورة حالته وشدة حاجته للإنقاذ. تعدهم بعلاجه وتتشبث به وتبكى بشدة ، ويوضحون لها أنها هى نفسها ستذهب معه ، لأنها تتستر على الغريب الذى تسبب فى أكبر مشكلة للسلطنة، ومن الواجب أن تسلم للقضاء .

تواصل بكاءها فى نفس الوقت الذى تدخل فيه أمها وأخوها وتقع عيونهم على المشهد ويصيب الأم الذهول.. تقف لحظات فى محاولة للفهم. ترتعش

ومن تحتها قدماها المسمرتان على عتبة الباب .. سقط وشاحها الأسود كاشفا كتلة شعرها الفضية التى كانت الشىء الأبيض الوحيد الذى يتوج الكيان الأسود.. بدا أنها لا تستطيع أن تدرك أو تعى بالضبط ما يجرى .. لم تعاونها قواها العقلية المتخاذلة على ذلك .. أخيرا وقعت مغشيا عليها وصرخ ولدها..

– كماوشى.. نانين كماوشى

خرج الجميع فى عجلة لإنقاذ أهل البيت والغريب.. نسى الكل فى غمرة القبض على الغريب باب القاعة مفتوحا يضربه الهواء بشدة ويهاجم كل المحتويات التى أخفتها السنين ..

(٨)

قام أحد الكهنة بعلاج نادر بخلطة طرية مكونة من غلي مسحوق سبعة أعشاب.. وضعوا منها على المناطق التى لدغها الثعبان.. وقطر له من سائل أزرق عشرين نقطة فى فمه وأذنيه.. وترك لمدة نصف ساعة ، قعد بجانبه كاهن يقرأ بعض الترانيم ويشير بيده إلى مواضع الإصابة وكذلك الرأس والقلب.. بعد قليل تقلب نادر الذى كان جثة لاتمت للحياة بأدنى صلة .. فتح بهدوء عينيه ثم هب واقفا كمن لم يمسسه ضر .. فوجىء بأن سلاسل الحديد تقبض علي رسغيه وكاحليه، ومع ذلك أسرع الجنود يلتفون حوله .

أشار رئيس الجند لهم فقربوا نادر من الصخرة.. كانت المقصلة جاهزة وتحتها وعاء تتجمع فيه الدماء المسالة.. الجمع كبير حول الغريب.. الكهنة ورجال السلطانة والجنود وكثير من الشخصيات العامة والخطاب العشرة..

امتلأ البهو الفسيح عن آخره.. الناس فى الخارج يتدافعون لتطل عيونهم، وأكثرهم ركب سور المعبد الخارجى .. الشباب والأطفال وكذلك الرجال صعدوا، وظلت الهتافات بحياة السلطانة تعلو وتتدفق ..

تلا رئيس الكهنة بعض العبارات ، ثم أمر السياف أن يتلو بعده عدة كلمات، يقولها بالضبط كما يرددها الرئيس وعليه بعد ذلك ان يؤدى عمله بإتقان ..

دنا أحد الكهنة من السياف ، ومد يده فأمسك بالسيف ومرر أصبعه على الشفرة يختبر سلامتها وحدتها .. تحرك السياف يمينا وشمالا ودار دورة تراجعت معها الجموع واتسعت الدائرة، عندئذ ارتفع صوت نادر هادرا وقويا، فسكت الجميع تماما وسكت هو الآخر لحظة يستمع إلى الانصات

الذى توفر وخيم علي الجميع حتى الطيور وأوراق الشجر.. كان الكاهن الذى يجلس فوق الغرفة المقدسة بشكل شبه دائم يصف كل ما يجرى للسلطانة ، كما كان يصف حالها لرئيس الكهنة، ويتولى تزويدها بالماء وبعض الطعام الذى لايقيم أود عصفورة..

– من أنتم .. قولوا لى من أنتم .. فى أى عصر تعيشون ؟ .. الوحوش أرحم والحيوانات أفضل.. من أنتم ..؟

صرخ عاليا وكرر ..

– من أنتم؟.. أنتم حثالة الأمم.. تعيشون كما كان الناس يعيشون قبل آلاف السنين .. ماذا تريدون منى ؟ ألأنى غريب تحكمون على بالذبح ؟ هل هذا سيحل مشكلتكم ؟ هذا غباء.. نعم.. أنتم أغبياء..

عندما قال الكاهن للسلطانة أن الغريب يتكلم بقوة ويرفع صوته بشدة ولا أحد يفهم شيئا من كلامه، أمرته أن يحضر المترجم ، وينقل للناس ما يقول .. جاء عدد من المترجمين ، استطاع أحدهم أن يفهم كلام الغريب ، وكان الغريب يقول :

– أنتم شعب متخلف .. لن ينقذ ذبحي سلطانتكم إذا كانت سيئة حقا .. وإذا كنتم تريدون أن تخرجوها من السجن، أنا أخرجها لكم دون أن تراق دماء .. أفيقوا أيها الأغبياء ..

نقل باسال المترجم بصوت عال ما يقوله نادر :

– ما جريمة الغريب ؟ بماذا أساء إليكم ، إذن فأنتم غير كرماء ولا نبلاء.. تعلمنا فى بلادنا أن نكرم الغريب ونضيفه ونقدم له ما يتمنى كى يكون سعيدا .. أما أنتم فيبدو أن لحم الغرباء يلذ لكم ..

سكت لحظات وهو يحدق فى الجميع ثم قال:

– انا ضعت في السيل وظللت تائها على سطح الماء ثلاثة أيام حتى

ألقاني الماء على شاطىء بلادكم.. جائعا وعريانا، ولم ترحب بي أي أسرة إلا أسرة الراحل باتيه. أما أنتم جميعا فأغبياء متخلفون.. وأنا أشكرهم فهم يعرفون معنى الواجب..

نقل المترجم ما قال بصوت عال، أعاده كاهن السطح على السلطانة ..

– ما ذنب الغريب الضائع الذي ضل الطريق أو حتى لم يضل ، وجاء قاصدا بلادكم ليتعرف إليكم ويفيد منكم أو تفيدون منه؟.. دعوا الأبواب مفتوحة لعلها تحمل الخير .. وإذا كنتم حقا تريدون إخراج السلطانة فسوف أخرجها لكم .. والآن أريد ان أسمع ردا منها وليس من الجنود أو الكهنة ، فأنا لاأثق في هؤلاء ولا في أولئك .. أنا لا يعنيني أن أموت . فقد كان من المفروض ان أموت قبل ذلك ، وأيا كانت الطريقة فأنا أتصرف كأني ميت ، ولكني يجب أن أعمل عملا صالحا قبل أن تسقط رأسي . ويكفيني أن أقول إنكم أغبياء ومتخلفون ، وهذه كلماتي الأخيرة ..

بدأ نادر يقرأ بضع أيات من القرآن الكريم بينما تعالت الجماهير تطالب بذبحه فورا دون إبطاء ، ليس فقط لفك أسر السلطانة ولكن عقابا له على سوء أدبه فقد سب الشعب كله .. وأول ما يقطع منه لسانه، وهتف الناس في صوت واحد : حاشاي هي ين تاو هي :

– لسانه قبل رقبته .. لسانه قبل رقبته ..

وهتف آخرون بايقاع فيه إصرار .

– اذبحوه .. اذبحوه .. كاسر هي .. كاسر هي .

أمرت السلطانة بفك قيوده وإتاحة الفرصة له لدفع الصخرة، وأن يقف الجنود المسلحون على أهبة الاستعداد لقتله إذا هرب ، وإذا فشل في إزاحتها خلال ساعة يتم تنفيذ حكم الكهنة فيه .

طلب نادر عدداً من قضبان الحديد وعدداً من الجند الأقوياء وشرع في

محاولة دفع الصخرة الضخمة، بعد أن قرأ من جديد بضع آيات مما يحفظ .. توالت محاولات الإزاحة من عدة زوايا بتوجيه ومشاركة من نادر الذى بهر الناس بنيانه القوى وعضلاته المفتولة وتصميمه العنيد على إتمام مهمته .

كانت البداية كما شرحها للجنود هى أن يصعدوا إلى سطح الغرفة، ويحاولوا دفع قضيب سميك من الحديد بين الصخرة وبين الغرفة، إذا حدث هذا ستتوالى المراحل الأخرى بجهد أقل.

كانت هذه المهمة صعبة جدا اقتضت المجهود الأكبر حتي نفذ القضيب في الموضع الذى أراده نادر ، وتوالت الجهود لتحريك الصخرة سنتيمترات قليلة فى البداية بدفع نصف القضيب الأعلى عكس اتجاه الصخرة .. وعندما تحركت أخيرا تم وضع حجر صغير في حجم البطيخة ليحفظها بعيدا عن الحائط حتى يعدوا للمرحلة التالية .. وهكذا .. خطوة بعد خطوة .. ابتعدت الصخرة عن باب الغرفة المقدسة وهللت الجماهير وهتفت..

أسرع الكهنة وكل من في الساحة إلى السلطانة يساعدونها على الخروج.. كانت هناك محفة جاهزة .. رفعوها إليها مشدوهة الخطوات مملوءة بالصمت . توزع على الجميع نظرات شاردة ومرتعشة . تكلمت فلم يستطع أحد سماعها .. هدير الجماهير الفرحانة يهيمن على كل الأجواء.

سألت عن الغريب .. أحضروه أمامها .. قالت :

– شكرا لك .

توالى هتاف الناس : كلنا فداءك ياسلطانة .

– يقيم هذا الغريب بالقصر لمدة أسبوعين ويخدم كرئيس دولة وأراه في ضحى الغد .

هتف الناس بحياة السلطانة وحياة الغريب وأسرع البعض يرقص والبعض يغني إلى أن تحرك الموكب الكبير أخيرا وراء كارتة السلطانة التى بدا عليها الهزال والخور .. رفعت السلطانة رأسها إلى السماء الصافية ..

شكرت الرب . وتطلعت إلى المدى البعيد ، كان مسيجا بالأشجار العالية، محاطة شواشيها بأفق برتقالى تلونه شمس توشك على الغروب ..

تنهدت السلطانة بعد أن أحست بلمسة برودة .. كانت النسمات الرقيقة تربت على خديها وصدرها وتجدد زرع الأمل فى القلب الكبير .. أغمضت عينيها وهزت رأسها مرات، حسرة على التجربة التعسة ورضا بالخروج منها بلا خسائر .. همهمت :

- التجارب هى الرأسمال الحقيقى لمن يبحث عن الثراء .

ما إن خرج آخر فرد من ساحة المعبد وحرمه حتى أسرع الكهنة بإغلاق جميع الأبواب من الداخل وشكروا الرب، أعلنوا سعادتهم بزوال الكرب .

قال أحد الكهنة لزميله : كان المعبد كامرأة عارية اندفعت من بيتها الذى أضرمت فيه النار ثم سقطت مغشيا عليها، والمارة يحدقون فى لحمها ويمصمصون الشفاه ويوزعون نظراتهم عليها .. لقد دهس الغوغاء فى كل شبر من مكاننا المقدس ..

(٩)

ها أنذا أسترد حياتي مرة أخرى ، يصر الله على أن يبقى باب عمرى مفتوحا وأجلى مؤجلا، لن تخدعنى هذه المنح فأظن أن الباب مفتوح على إطلاقه وإلى غير نهاية، بل إن هذا يؤكد لى أنى على شفا خطوات من الموت.. وأنه على بعد سقطة أو سقطتين . وفى كل الأحوال أتمنى أن أعود إليك يا سهاد لألثم ورقك الأخضر، وأروى شجرة حبنا بلقائك يا صاحبة القلب الطيب، ومن أجل حبنا الزمى حجرة انتظارى فلن يطول الوقت الذى يبعدنى عنها وعنك، اشعلى فيها نار أملك فلا أخشى عليها إلا من صقيع يأسك .. إن الأمانى حتى لو كانت أطلالا كفيلة بأن تردنى إليك.. فاطمئنى .. بعد أيام أقضيها فى قصر السلطانة بدعوة كريمة منها لا ترد سوف تشرق شمس العودة، والسلطانة ممتنة لموقفى معها ستيسر سبيل الانتقال إلى حقولك المورقة التى اشتاقت إليها طيورى ، فابقى باب قلبك مفتوحا لى.. لى وحدى.

إننى الآن أستحضرك فساعدينى أتشمم عطر شعرك وأرى جبهتك العريضة وعينيك الياسمتين السوداوين وأنفك الصغير.. وفمك الرقيق وذقنك المدببة وعودك الممتلىء وبدنك الطرى الناعم.. وقلبك الحنون ، هذا هو سر جمالك ، فمشاعرك الفياضة تبث الجمال فى كل ملامحك.. إننى أعتزم أن أتقدم لخطبتك من جديد وسوف يكون الزفاف الحقيقى عندما أعود.. سننطلق إلى الجبل ونقيم معا عدة أيام فى كوخ غجرى تحت عين الله مباشرة.. الكوخ خال من كل شيء إلا ضوء حبنا ، نتغذى بالقبل ونشرب النظرات وعندما تلتقى رؤوسنا نحلم، وعندما نخرج إلى قمة الجبل ونتمدد

تحت شمس الرضا فوق رؤوس الشجر وترقص العصافير حولنا، وتشدو البلابل ويمر السحاب بنا يسألنا عما نريد ، نقول له: احملنا معك، فيحملنا ويدخلنا قيعانه القطنية، ونسترخي، وترحل من رؤوسنا العقول وتتخدر الأبدان ، وبعد قليل نفيق فإذا نحن لسنا بشرا ولكن سحاب.. يتكاثف ويتكاثف ثم يبرق البرق ويرعد الرعد ونتساقط على الأرض مطرا فيفرح الناس وينتشون.. ترقص قلوبهم داخل صدورهم ويتعانقون ويتلاثمون إذ يغسلهم مطرنا وتسقط عنهم كل الضغائن والأحقاد . تختفي تماما من كل الأرواح بصمات الشيطان وآثار الغضب، وأظافر الكراهية وتتزرع الأرض بالمحبة والسلام.

طرق الحرس الباب ومعهم المترجم باسال الذى قال بدلا منهم : السلطانة تنتظرك.

تنبه نادر واطمئن على هندامه ورافقهم إليها .

كان الخياطون وصانعو الأحذية قد سهروا طيلة الليل يعدون كل ما يلزم نادر أبو النجا من ملابس خارجية وداخلية وأحذية ، وصدرت الأوامر بتوفير كل ما يطلب وما لايطلب، وأصر على استبقاء شعر ذقنه مقسماً في أعماقه ألا يحلقه إلا في بلده.

كان يقيم في مبنى صغير بجوار القصر الكبير .. ممرات كثيرة في الحديقة الفاصلة بين المبنيين .. أرضيتها من حجر جرانيتى أحمر سداسى الشكل .. ساحة فناء رملية تمتلىء بالعصافير .. نخيل عال على الجانبين .. المبنى كبير أصفر وشبابيكه زرقاء .: الحراس يرتدون أردية زرقاء .. أعلام كثيرة فوق المبنى .. بوابة كبيرة ثم صالة .. مغطاة أرضيتها فسيفساء .. درجات سلم من رخام أبيض لامع مكون من قطع صغيرة معشق بعضها في بعض ..

قالت السلطانة :

– قررت أن أقابلك قبل أن أبدأ عملي في النظر في أمور الدولة التي تعطلت أسبوعا كاملا.

أرحب بك وأقول لك أن «نيامي» أصبحت منذ الأمس بلدك ..

التفتت إلى المترجم وقالت له :

– أريده أن يتعلم لغة البلاد خلال أسبوعين على الأكثر ، هذا أمر في منتهى الأهمية وستكون مكافأتك عظيمة إذا علمته اللغة بشكل جيد ..

ترجم باسال ما قالته لنادر فقال :

– أرجو أن يكون أول ما تصدرينه من قرارات اليوم هو إطلاق سراح «دامي» ابنة الراحل باتيه، فقد أخذها الحرس وسجنوها .

– دامي ابنة عمي وقد أخطأت خطأ بالغا، ومن أجلك وإكراما لك .. يطلق سراحها الآن .

طلبت من أحد الحراس سرعة تنفيذ الأمر ..

– والآن خلال خمس عشرة دقيقة كلمني عن نفسك وحياتك ودراستك وملكاتك ووضعك الاجتماعي وقصة رحلتك إلى هنا .

حكى لها تقريبا كل شيء عنه في الوقت المحدد .

– هذا رائع .. شكرا لك .. مطلوب منك خلال الأسبوعين أن تدرب مائة حارس على ألعاب الدفاع عن النفس بحيث يصبح هؤلاء الحراس ثلاثة أضعاف الكفاءة الحالية.. ستنتظرك مكافأة عظيمة إذاكانت النتيجة كما أتمنى .. مساعدي السيد كويكال سيكون رهن إشارتك في كل ما تطلبه .. المترجم سيقيم بالقرب منك ، سيعيش ويتحرك تحت أهدابك وعلى مدى أنفاسك .. يمكن أن تلمسه بأصابعك في أي وقت .

لقاؤنا القادم سيكون في مثل هذه الدقيقة في نفس هذه الغرفة بعد أسبوعين لأحصد النتائج .. شكرا ..

وقفت وحيت ضيوفها .. خرج نادر يملؤه الإعجاب بالسلطانة، وشخصيتها وترتيب ذهنها وحسن إدارتها، ورغبتها القوية في الإنجاز واستغلال الوقت بأفضل ما يمكن .. أبدى استعداده أن يخدمها في هذه المدة القصيرة بأقصى ما يستطيع .. مثلها يستحق التعاون والوفاء.. حاول أن يتذكر ما قالته دامي عنها .. تأكد أن دامي ظلمتها وأن الغيرة هي السبب .. لاحظ أنهما متشابهتان بدرجة كبيرة فلماذا قالت دامي أنها أجمل من السلطانة .. خامره شعور أنه لن يرى دامي مرة أخرى.. طاردته صورتها كثيرا طيلة النهار.. كان على ثقة أنها في حالة نفسية سيئة .. فقد كانت تأمل أن يظل معها وأن تحتفظ به إلى الأبد..

كانت سعيدة بمصيبة السلطانة وهاقد نجحت تلك السيدة التي يحبها الناس جميعا .. حسبت أن نادر سيظل سرا مكمورا بين أحضانها لكن الناس كلها علمت به وخاصة أمها وأخوها .. ظنت نفسها فوق القانون بحكم قرابتها للسلطانة لكنها ألقيت في السجن وعلم بذلك القاصي والداني، وإن لم يطل هذا السجن.. وليس من شك أنها غير مرتاحة لوجود نادر قريبا من السلطانة .

قبل غروب الشمس قرر أن يزور أسرة باتيه ويطمئن على نانين وابنتها دامي ويوضح بعض الأمور ، اصطحب معه باسال .

كادت دامي تطير من الفرح عندما أبلغها الحارس أن السيد نادر سيقوم بزيارتهم في المساء .

رحبت به نانين واعتذر لها نادر عن إقامته في بيتها دون إذن منها بسبب ظروفه، وعدم معرفته باللغة ومسألة القرار الخاص بذبح الغريب.. كما اعتذر عن تسببه في عدم حضور السيد باتيه الذى أحبه دون أن يراه من حديث دامي عنه.. استراحت نانين إليه ومضت تحدثه عن الماضي وعن باتيه وحكمته، وعن السلطانة عندما كانت صغيرة وعن زوجها وأنها كانت ضد

هذا الزواج.. وعن دامى وأخوتها الذين تركوها وتزوجوا وعاشوا بعيدا، وعن المزرعة.. كلما رغب فى القيام رفضت بشدة وأصرت على أن يتناول العشاء معهم.. أخيرا جاء وقت القصص.. وهذا دأب العائلات الكبيرة.. أن يبدأ كبيرهم فى رواية بعض ما تيسر من القصص وهم يتسلون بالبندق واللوز واللوبيا المسلوقة والمتبلة والكاكاو والشاى .. قالت:

-كان والد باتيه يجيد التحدث إلى الخنزير البرى والفهد وآكل النمل والببغاء الأحمر ، ومنه شخصيا عرف قصة لونه الأحمر .. قال له الببغاء إن جده الكبير غرق فى دم طفل .. إذ أرسله النسر بدلا منه فوقع فى بحيرة من دم لطفل مذبوح قيل إن الريح فى زمن مضى اتفقت مع العواصف على هدم قرية ، وظلت تضربها ليل نهار حتى اعترف العرافون وقراء الأسرار إنها لن تهدأ إلابذبح طفل .. ولما ذبح الطفل طلبت الرياح من النسر الذهاب إلى الطفل للتأكد من أن رغبتها التى لم تعلن عنها قد تحققت، فأرسل النسر الماكر الببغاء المسكين، وكان النسر يرقبه، لكنه عندما لاحظ سقوط الببغاء فى الدم لم يرد أن ينقذه بنفسه فأرسل بدلا منه الصقر.. وقرر الصقر أن يرسل الخنزير الذى رحب بالفكرة وذهب إلى دماء الطفل وجر منها الببغاء الذى كان مغشيا عليه.

أما جدة السلطانة فكانت ساحرة وكم قتلت من الأطفال لأنها تستثمر عيونهم وقلوبهم وأكبادهم في تنفيذ أفكارها.. لم يكن يخيب لها سحر أبدا.. لقد نقلت بيوتا بمن يسكنون فيها فى عز الليل .. وفى الصباح يكتشف الناس اختفاء هذه البيوت، والأرض التى كانوا عليها مزروعة نخلا يطرح تمرا لذيذا.

أما أزومى خالة السلطانة فكانت تأكل اللحم نيئا، وباتيه هو الذى ظل ينصحها ويصلح حالها ويغير طباعها لأنه فزع عندما رآها تحاول قضم ذراع ابنتها .. وقد بلغه من زوجها أنها فعلا قضمت أذن ولدها، وتمكن باتيه

من جعلها تتجنب أكل النيء ورفضت أن تأكل اللحم الناضج الذى سوته النار، ومالت للنباتات والزهور سنة، ثم فوجئنا بها وقد ماتت فى الغابة ولم يكن ذلك بسبب حيوان .

نسيت أن أحكى لك عن جدة السلطانة كيف استطاعت أن تسلسل الشيطان.

شردت نانين قليلا ثم استأنفت حديثها، بصوتها الخفيض الدافيء، بعد أن سألها كيف أمكنها أن تسلسله؟

أغرته بوليمة يحبها . .. كانت مكونة من حزمة من الضوء الأزرق وهبة من ريح شرقية ووعد لم ينفذ وأنفاس أحد الكفرة مع فتافيت ثلج طرى، وقبضة من رعب مع خفق جناح طائر وخصلة من أشعة شمس لم تشرق على العباد وقليل من الكراهية.. جمعت كل هذا فى بطن خنزير مات من سنين ، وما إن علم الشيطان بالوليمة حتى أسرع بالنفاذ فى بطن الخنزير فأغلقت عليه، وظل عندها شهورا إلى أن لقيت حتفها بعد أن هاجمت بيتها جميع شياطين الأرض. لكن أحدا لم يصنع صنيعها من قبل ولا من بعد حتى الآن، ولا يزال فى عائلتنا من يتعامل مع الأشباح ويستخدمها.

باتيه فى زيارتى الأخيرة له همس وهو حزين قائلا إن سيد الأشباح غاضب لأن هناك من يستدرج الأشباح إلى بيتنا ولم يحدد اسم ذلك الشخص، وقال إن الأمر مزعج له جدا ويؤثر على حضوره إلى البيت لرؤية العائلة .

هدأت قليلا ثم قالت : كلامهم حكمة، وعملهم من أجل الخير والحق والشرف .. هؤلاء هم الأسلاف ، أين منهم الجرذان التى تراها فى كل مكان..

تنهدت آسفا على رحيل الجيل العظيم من البشر.. قرر نادر أن يستأذن قبل أن تصطاده الشياطين وتعصف به، كفى ما وجده منها أو من أحبابها.

قالت له نانين وهي ممسكة بيده:

– تبدو رجلا طيبا. في الزيارة القادمة حدثنا عن أهلك وبلدك.. والآن.. خذ حذرك. فليست كل الأشجار التي ستلاقيها في طريقك حقيقية.. بل أحيانا ما تكون من الجن والشياطين.

تلحق به دامي وهي تقاوم لهفتها وتسأله على جنب بإشارتها الدقيقة:

– كيف سأراك؟

يرتبك نادر ويقول:

– صعب.

تسرع بالقول.

– ليس صعباً كما تتصور، إما أن تأتي لزيارتنا أو آتي إليك.

– لا.. لا.. لا داعي للتهور، سأحاول أن أزوركم مرة ثانية قبل السفر.

تكبح جماح لهفتها وتقول:

– مرة واحدة لا تكفي.. هناك أشياء كثيرة لابد من مناقشتها.

– اطمئني.. سأحضر.

– غدا؟

– ليس الغد ولكني سأحضر.. هيا.. ادخلي.. هيا.

في الطريق، أكد ثلاث مرات على باسال ألا ينطق بحرف مما سمع في أي مكان. نبهه إلى خطورة ما قيل وعليه ألا ينظر إليه إلا على أنه سمر وتسلية، لا يتعين أن يكون سببا في إلحاق الضرر بأحد وهم بلاشك أناس طيبون.

قال المترجم:

– أنت لم تعرف السلطانة.. إنها سيدة طيبة وتحب أهلها جداً وتميل للعفو عن أخطائهم وترى أنها أمور طبيعية حتى لو سبها أحدهم.

قال نادر: لا شأن لي بطباع السلطانة.. أنت لم تسمع شيئاً.. واضح.؟

قال المترجم: واضح.

بعد يومين استيقظ نادر بعد منتصف الليل، فتح الباب وخرج.. أسرع إليه الحرس.. سألوه عن وجهته.. قال إنه يشعر بكتمة نفس ويحتاج لقليل من الهواء.

تركوه.. خرج من باب القصر بملابس النوم.. خطواته غير ثابتة تماماً.. سأله الحراس الواقفون عند البوابة الرئيسية.. أجاب نفس الإجابة، اقترحوا عليه أن يرافقه بعض الحراس.. رفض.. وعدهم بألا يتأخر.. حملته أقدامه بآلية واضحة.. ثابت النظرات لا يكاد يتنبه للطريق، لكنه يمضي كمن أوكل لقدميه أن تقوداه واستسلم للنعاس، أو كالذى تجرع كثيراً من الخمر على غير عادته.

قابلته الكلاب فلم يهتم والقطط والسناجب.. لم ينظر إليها.. بل هى التى أفسحت له الطريق وتجنبته وانطلقت مبتعدة وهى تنظر إليه.. لم يتنبه لكارتة مسرعة جدا. لكنه قبل الارتطام بها مباشرة وقبل أن تدهمه بسنتميترات توقف دون أن يعترض، أو يصرخ فى السائق الذى سب وصرخ فى وجهه معبرا عن دهشته ممن يمشى فى هذه الساعة.

قبل أن يصل إلى القاعة القديمة التى سبق له الاختباء بها عدة أيام.. وكانت تبث من نافذتها وبابها نورا باهتا لا يكاد يجرح الظلمة.. لحق به جنود القصر وأمسكوه وأعادوه إلى فراشه فى صمت دون أن يعترض أو يسأل مثل جثة مستيقظة.. والدهشة تعقد ألسنة الجنود.. يتبادلون النظرات ويحدقون فيه..

أبلغوا الأمر فى الصباح للسلطانة فأمرت بمضاعفة الحراسة والحفاظ عليه فقد يلحق بنفسه الأذى، وخامرها اليقين بأنه ممن يمشون وهم نيام، ولم تهتم فليس ذلك مما يعيب صاحبه.. قليل من الحراسة يكفى. إنه برغم ذلك مكسب كبير للمملكة، وعزمت ألا تفاتحه فى هذا الأمر فهناك الأهم.

(١٠)

دخل نادر على السلطانة التي اختبرت قدرته على الحديث بلغة أهل نيامي.. أعجبها ما أحرزه من تقدم ملموس، وشكرته لأن الفضل الأول له وليس للمترجم، ولو كان رافضا مقاوما للتعلم ما تعلم ولو اجتمع عليه كل علماء اللغة وكل مترجميها. شكرت المترجم وسألت عن الحرس المدرب. أبلغها بأنهم جاهزون. طلبت أن تراهم عصر اليوم.

في الوقت المحدد اجتمع الشباب وقدموا عرضا مميزا على مدى نصف ساعة.. فرحت السلطانة بالنتيجة وهلل المشاهدون. وعدت بترقية كل من يرتفع مستواه المهاري في الدفاع عن النفس وحماية الممتلكات...

– هل تعرف لماذا كنت في الغرفة المقدسة بالمعبد؟

سألت السلطانة «نادر» وهما معا يجلسان في مكتبها.

أجابها – لاختيار أحد خطابك.

قالت: أنا لا أريدهم الآن.. سوف أختار غيرهم.

قال: الزواج مسألة صعبة ومعقدة.

سألته: هل أنت متزوج؟

– نعم.

– أنجبت؟

– لا.

– لماذا؟

– لأني تزوجت قبل حضوري بأيام.

- عريس إذن؟

- ليس تماما..

ساد صمت.. وحاولت السلطانة أن تنهيه.. فتحت فمها ثم أغلقته.. كان الصمت ثقيلا مريبا.. لم يحاول نادر أن يتبرم على أى نحو.. ظل هادئاً.. إلى أن قالت:

- أريد أن تكون أنت زوجى.

كان هذا الخاطر قد عبر أفق تفكير نادر، لكنه أسرع بطرده، فليس من المعقول أن تقترح عليه ذلك.

قال: لكنى متزوج.

قالت: أنا لا أعرض عليك نفسى فقط وإنما أعرض عرش نيامى أيضاً.

تملكته الحيرة، تخلص منها مؤقتا بقوله:

- لكنى متزوج.

عاد الصمت يحاصر المكان ومن فيه، وزايله الأمل النضير الذى تجول فى عقله طوال الأيام الماضية.. قالت:

- نادر.. إما أن تطلقها أو تحضرها إلى هنا، وأنا أرضى أن تعيش معك، ولها قصر خاص.

ابتلع نادر ريقه.. سكت لحظة.. فاقتحمته قائلة:

- يبدو أنك تحتاج أن تعلم أنها ليست دنيئة تلك المرأة التى تخطب رجلا لنفسها.. إنه حقى وربما كانت إرادة الإله كامنة وراء رغبتى، وإلا فلماذا حدث ما حدث وانتهى بأن أكتشفك.. عليك أن تفكر وتعلم أن تفهم لغة الآلهة، وهى تغضب ممن لا يفهم إشاراتها.. لقد رأيت فى مرآتى التى لا تكذبنى أنك رجلى..

أخيراً قال: أولا ابن البلد أحق.. وثانيا، يمكنك إعادة دراسة خطابك فلابد أن بينهم من يستحق، ثالثا إذا احتل الغريب هذه المكانة فلن يرضى

شعبك وسينتقص هذا من محبتهم لك، وقد علمت بما فعلتيه من أجلهم كما لاحظت إعجابهم الشديد بك.

قالت: أعلم كل ما تقوله.. وليست نيامى هى أول بلد تتزوج مليكته من غريب، ولا ملكها من غريبة.

قاطعها: فلماذا فكرت في اختيارى؟

قالت: هذا هو السؤال الذى كنت أريده.. الحقيقة أنى جمعت معلومات كثيرة عنك، وضع رجالى أمامى كل سكناتك وحركاتك وكلامك وأعمالك حتى دعاباتك مع الخدم وحديثك الفياض مع المترجم، وانتهيت إلى أن أضعك فى قائمة الخطاب وأعيد الاختيار، هذا إذن تصرف طبيعى. فلم أقرر اختيارك إلا بعد دراسة، وثانيا مقارنتك بالخطاب ومنح الدرجات.. فكنت أنت الأفضل.

بدا نادر كأنه اقتنع بمنهجها، وبدا أيضاً كأنه بما قالت قد نزعت بعض أسلحته.. لكنه ما يزال برغم الأسابيع القليلة التى أقامها فى هذا البلد يشعر أنه غريب، وإذا قرر أن يقبل فهل تقبل زوجته؟ هل سيقبل أهله.. أعتقد أن سهاد سترفض.. ولماذا ترفض؟

ترفض ضرة سقطت عليها فى الأيام الأولى لزواجها وهى لاتزال عروساً، بل هى لم تدخل دنيا بعد.. وبمناسبة الدنيا أنا لم أستطع أن أثبت رجولتى مع سهاد، فماذا عن الزوجة الجديدة، وهى كما علم عن حكايتها محرومة وجائعة، وسوف تنتقم لشبابها الذى أهدر مع زوج مسن ومريض، وسوف تحاول أن تنهل من النبع الذي تتصور أنه قادر على رى نساء المملكة.

داهمه سؤالها.

– لماذا لا تجيبنى؟

– أفكر

– أوضحت لك كل شئ

– لا.. أحتاج بعض الوقت

– كم من الوقت يكفيك؟

– أسبوع

– نادر.. هذا غير معقول.. الوقت ليس فى صالحنا لهذه الدرجة.

– تحملينى

– لن أتحملك.. غدا مساء تعطينى رأيك.. لا تفكر فى بقدر ما أطالبك أن تفكر فى أمة تحتاجك.. أثق أنك ستعيننى جدا.. أنا لا أشعر بأننى سأكون مطمئنة لأحد ممن تقدموا.. أنت شئ آخر.. قوة وثقافة وشكل وإرادة.. أنت أنقذتنى ولابد أن أوفيك حقك وأكافئك.

– مكافأتى أن تسهلى لى سبيل العودة إلي وطنى

سيكون لك وطن ثان، بل أول

– أنا غير معترض.. أود أن تفكرى

– فكرت وأريد أن أكافئك كل يوم.. كل ساعة

– سيتسبب قرارك فى إثارة المشكلات

– لا تشغل بالك.. أنسيت أنهم كانوا يريدون قطع رقبتك قبل أن تزيح الحجر؟

– لا .. لم أنس

– وبعد أن أزحته هتفوا بحياتك

– كان حبا لك

– بل هذه طبيعة الشعوب.. ما يريده الملوك يريدونه

– يا سيدة البلاد..

– يا سيد البلاد.. غدا بعد الغروب موعدنا.

خرج كالمضروب على رأسه.. والتقى باسال.. مضيا معا.. طلب أن يذهبا إلى مكان بعيد وجميل ومنعزل.. أخذه باسال إلي الحديقة الملكية.. حيث

الورود والطيور والأشجار الباسقة والهدوء والعزلة التى يبغيها .. نافورات كثيرة صغيرة وكبيرة.. تماثيل معدنية لبعض الأسلاف.. مقاعد خشبية ورخامية جميلة ومصقولة.. حدثه بكل ما جرى.. كان نادر قد أحب باسال وارتاح إليه، كما أنه لم يشعر بخطورة الاعتراف له، وفي الوقت نفسه لابد أن يتحدث إلي شخص قريب، وهذا هو تقريبا أقرب شخص يمكن أن يفهمه خاصة إذا عصيته اللغة.

كانت رأسه كبطيخة فوق الماء يدفعها الموج وهى بلا أجنحة.. يحركها كما يشاء وهى تدور حول نفسها وتتقلب ولا تدرى عن حالها شيئاً ولا عن مصيرها، كل ما تنتظره سكينا حامية تشقها نصفين.. ينهش بطنها من قطعوها وتتحول إلى وعاء فارغ، حيث يزداد جهلها بحالها ومصيرها، وإلى أن يحدث هذا فهى طافية على الماء لا تملك من أمرها شيئاً والموج يعبث بها كيف يشاء.. كل ما يحدث لها أن تستحم بالماء وتترطب جدرانها وقد تسافر من منطقة إلى أخرى.. لكنها فيما تظن لن تغرق.. إلا إذا تحولت إلى فتات.. إذا هاجمتها الأسماك الكبيرة وقضمت منها قطعة فقطعة.. سأل نادر مرافقه عن رأيه في البطيخة التي تدحرجت إلى النهر.

تساءل بينه وبين نفسه عن السر فى أن شخصا يمكن أن ينتقل من الموت إلى المجد، أو من الضياع إلى الملك ومن.. إلي.. ومن... إلى أيا كانت المتشابهات لهذا الموقف فهى جميعاً بلا مذاق حقيقي.. تكدس الحيرة أكثر مما تفتح بابا للأمل والخلاص من حالة الغربة واللا غربة..

كلما حاول العودة إلى الماضى داهمه الحاضر الملتبس، ثم قفز الماضى إليه عبر عيون سهاد في محاولة بائسة لاستعادته، لكن الحاضر هو المهيمن.

لفت نظره وهو يفكر فى عرض السلطانة مشهد الطيور ذوات المناقير الحادة تركز كل انتباهها أسفل أوراق النخيل العالى ثم تنقض لتلتقط حبات البندق وتطير سعيدة بها إلى حيث تتمكن من كسرها وابتلاعها.

لابد أننى حبة البندق وإلا فلماذا قدمت عرضها هذه الطيور.. ها هى مدن تراودك عن نفسك، ومدن تسأل عنك الريح والسيل وسحابات الظنون، مدن تستبيح دمك. ومدن تناديك من الذاكرة.. أين أنت الآن يا متفرقا فى البلاد، ممزقا بين موطن روحك ومسرى جسدك الذى تتناوشه الغربة والنساء.

ها هو الطائر صاحب الصرخة المميزة، يخطف الأذن بصيحته.. أم تراه يذكرك برائحة الوطن الذى انطفأ فى قلبك؟.

الحل هو الهروب.. لم يستطع أن يصرح بذلك للمترجم، اكتفى بأن يستطلع رأيه فى زواجه بالسلطانة فى ظل الظروف التى حكى له عنها.. رجع له باسال الموافقة، ولم يجد أى مبرر للرفض.

فى الوقت نفسه كانت السلطانة قد جمعت مستشاريها وسألتهم الرأى، فاعترض بعضهم. وتحفظ البعض، وبعد أن عرضت وجهة نظرها وأبرزت المزايا.. وافق عشرة وبقى اثنان يصران على الرفض بسبب القلاقل التى يمكن أن تحدث.

ذهبت متنكرة فى الصباح المبكر إلي الكهنة وعرضت عليهم الأمر، طلبوا مهلة للتشاور والتفكير وسؤال الآلهة والأسلاف. ارتأوا أن الأمر أقل من أن يسألوا عنه الإله الكبير.. أصرت أن لا يتجاوزوا الساعة الخامسة حتى لا تضطر إلى اتخاذ قرار منفرد.

ظلوا مجتمعين حتى انتهوا فى الرابعة إلى الموافقة، وفوجئ نادر أن إعلانا صدر قبل وصوله إلى القصر بفيد قرار السلطانة الزواج بالغريب نادر أبو النجا.. وعرف الناس جميعاً خلال ساعة.. وخرجت الجماهير تهتف بحياة السلطانة وتبارك الزواج.

سهر الآلاف منهم حتى الصباح، وتوالت فى المملكة مظاهر الأفراح والبهجة بزواج السلطانة.. وكانت أغلب الأحاديث تؤكد أن الرجل الغريب

بمواصفاته المتازة يحق أن يكون ملكا، مادام لن يمنع السلطانة من تحقيق العدل وتوفير الرخاء..

في الصباح خرج الخطاب العشرة وذووهم وأحبابهم.. كانت للكثير منهم حيثية كبيرة بسبب ثرائهم.. يطلبون لقاء السلطانة ليواجهوها باعتراضهم على اختيار الغريب، والتنكر لهم والتصرف دون مشورتهم.. إنها بهذا التصرف الغريب توجه لهم الإهانات الثقيلة التي لا يمكن قبولها.. إنهم على الأقل يطلبون إيضاحا مقنعا..

قالت لهم ما قالته لنادر، من أنها وضعته ضمن قائمة الخطاب، واعترض الخطاب بشدة على هذا التصرف بوضعها غريبا لا يمكن مهما امتلك من مميزات أن يساوي ابن البلد.. طال الحديث واللجاج، وأنهته السلطانة بقولها إنه ليس رأيها وحدها ولكنه أيضاً رأي مجلس المستشارين والكهنة ويمكن إذا وافقوا أن تنظم استفتاء يشترك فيه الناس جميعاً.. فرفضوا من جديد على أساس أن المسألة من الأصل قائمة على إجراء خاطئ، هو ضمه للقائمة.

عندما همت السلطانة بإنهاء الاجتماع أعلنوا عن ثورتهم وعن عزمهم تصحيح الأوضاع، وعدم السماح بالمساس بحقوقهم، وهي حقوق الشعب التي تفرط فيها السلطانة وتسلمها للغريب.

(١١)

دعته في منتصف الليل للقائها في مكتبها.. القاعة الكبيرة فارغة.. دهش للأثاث المتواضع والسجادة العادية والمكتب الخشبي الكبير المزين ببعض الأشكال الخشبية.. وعليه تمثال صغير معدني لحصان يقفز عاليا في الفضاء وعلى مسندي المقعد رأسا أسدين.. لوحة كبيرة في الواجهة لخريطة نيامي وصورة بشعة لرجل، ربما يكون زوجها الراحل وعلم البلاد المكون من مجموعة من الدوائر الملونة.. في الوسط عين كبيرة.. لوحة لمنظر طبيعي، وصورة للسلطانة تبدو فيها أفضل كثيراً مما رآها في الأيام الماضية.. لوحة رائعة لمجموعة من الغزلان في غابة يلتفون حول نبع ماء صافي كعيون الغزلان. إلي اليمين باب كبير عليه طبقة كثيفة من قطيفة حمراء.

انفتح الباب وخرجت السلطانة من حجرة نومها التي تفتح على المكتب.. لم يكن نادر معدا نفسيا للمتغيرات.. طلعت عليه بفتنتها فتفتحت أفواه دهشته.. كانت السلطانة في أبهى زينة.. حيته فرد بكلمات مدغمة ومضطربة.. كانت عيونه حائرة في توزيع نظراتها على الجسد المتألق.. هل يتوقف عند الشعر الذي تجمعت ضفائره متداخلة فوق رأسها كالتاج، أم يحدق في الشفاه المكتنزة والعينين الواسعتين العسليتين والعود الرشيق والصدر الناهد، أم في الثوب الفضفاض الذي لا يصلح إلا للزفاف لولا لونه السماوي المزين بفصوص الماس البراقة..

نصف كم من الدانتيلا يغطي الذراع حتى الكوع، وفتحة الصدر مستديرة تكشف الحواف العليا للنهدين الخمريين.. البطن الصغيرة ترتفع

مضبتها قليلا لتسمح للسرة أن تهبط قليلا لتتجمع فيها نظرات العيون الوالهة وأطراف الأنامل التى قد تبحث عن محطة أخيرة تستقر عليها متوهمة أن بها يكمن الزر السرى لأجراس الشهوة المعتقة..

الثوب سابغ ولامع لا يتيح الفرصة للنظرات كي تثقبه، لكنه يستطيع تحريض الخيال كي يحلق كيف يشاء ويتصور.. كانت بعض المصابيح الصغيرة تبث أضواء بنفسجية وفيروزية.

غرقت القاعة في عبير فواح. له حضور قوى نافذ شمل الإنسان والجماد.. مر على كل موجود.. أعاد طلاءه من الخارج واتخذ طريقه بسرعة وعمق إلى الداخل حيث سكن وأخذ يمارس طقوسه التى تزلزل وتخلخل..

يبدو أنها كانت ترحب به وتسأل عن صحته.. لكنه غاب قليلا أو كثيراً.. ليس جمالها وحده ما يدهشه وإنما التحول الكبير بين حالتها خاصة بعد خروجها من الأسر إنسانة هزيلة، ومريضة شعثاء الشعر. ممتقعة الوجه.. مملحة الشفتين.. خارجة من تحت الأنقاض، تشملها هالة معتمة من الرعب والأسى. ورآها بعد ذلك أفضل قليلا وليس كالآن.

جرته من يده فانجر، مضت به إلي غرفة نومها.. لا علاقة من قريب أو بعيد تربط هذه الحجرة بقاعة المكتب.. هذه حجرة نوم سلطانة السلاطين.

كان هناك عشاء عظيم وشراب وكلام وقرب وموسيقى وأيدى ناعمة.. وهمس ونجوى وأدوات كاملة وجاهزة لطهى أعتى الرجال.

قالت له: أنت نادر وأنا أوسة.. أنت إنسان وأنا إنسانة.. فلنتحدث بهذه الصفة.. ما رأيك؟

لم يعلق.. كان لا يزال محمولا على محفة الدهشة وربما كان يهرب من البوابة التى تريد أن تفتح بها الحديث لأنه يعرف ما بعدها.. لمح وجهه فى المرآة الكبيرة التى تمتد بعرض الحائط.

قالت: أم أنك تود أن تكون أنت الغريب وأنا السلطانة؟

ابتسم وقال وهو منجذب إلى الخواتم الذهبية الكبيرة التي تقف كالحراس فوق يديها وقدميها.

- نعم.

ابتسمت وظهرت لأول مرة غمازتان في سفوح خديها وبدت أجمل. طلع عليه طيف دامي بسرعة ثم اختفى، عندما قالت:

- فات أوان ذلك.. فقد نمت العلاقة بيننا على الأقل من جانبي فلم تعد أنت الغريب.

- لكنك أنت السلطانة.

قالت: فهل تراني الآن سلطانة؟

قال: نعم.

ابتسمت وسألته: هل هذا منظر سلطانة؟

قال: نعم.

قالت: لقد أضفت إلى صفاتك التي أعجبتني خفة الظل وحب الدعابة.

قال: أنت تظلمين نفسك بحسن ظنك بي

قالت: أنا أعرف بالضبط ماذا أفعل وعواقبه.

قال لها: ظهرت عواقبه مبكرة.

- كيف؟

- بالأمس حضر الشباب وهددوك.

قدمت له الكأس، وسحبت لنفسها كأسا وقالت:

- لا تهتم.. أمر طبيعي أن يثوروا.

- سبق أن حذرتك من القلاقل.

- ومرات عديدة قلت لك لا تهتم.. كل شئ تحت السيطرة.

تذوق المشروب وفهم أنه عصير أناناس، لكن لسة غريبة تصاحبه، رشف رشفة ورشفة وكان مقبولا.. أكمل الكأس.

مدت له شريحة صغيرة من لحم الغزال.. أكلها

- تأكد أننا سنكون أسعد زوجين.

- تعجلت

- أدرس جيدا ونفذ.. لا تترك مسافة كبيرة بين الاثنين.

- فكرت وحدك واتخذت قرارك دون أن تتركي لى فرصة كافية للتفكير.

- أنا واثقة أنك ستوافق، وأن ما تخشاه لا وجود له على الإطلاق.

ناولته شريحة أخرى من اللحم، فتح لها فمه وأقفله عليها وتذوقها بعد أن ضغط عليها بأسنانه.. سألها عن نوع هذا اللحم.. سألته عن سر سؤاله.

قال: أخشى أن يكون لحم خنزير.

سألته: ولو كان كذلك؟

قال: لا آكله.

سألته: هل أنت يهودى؟

قال: بل مسلم

سألته: ماذا أيضاً؟

قال: ولا يكون لحم خيل أو بغال أو حمير أو كلاب أو ذئاب.

قالت: والنعام؟

قال: لا بأس به.

قالت: علىَّ أن أحفظ عاداتك، ما تحب وما تكره.. تأكد أننى السلطانة سأكون خادمة لك فاطلب ما تشاء وامنع ما تشاء.

قال: أوسة..

تهلل وجهها وهبت، فقفزت فى الهواء ورقصت ثم قالت.. أخيراً تنادينى باسمى.. هيا انهض لنرقص.. هيا.

لم يتحرك فجرته وعانقته وشرعت تدور به وتضمه إليها وهو أطول منها ولكنه خاضع ومطيع.

حلت غدائرها فتجلت صفحة جديدة من صفحات الأنثى.

عادا يشربان ثم اغتسلا وعادا للرقص وطلبت منه أن يقبلها.. فقبلها قبلة قصيرة.. طلبت ثانية وثالثة إلى أن تمكنت شفتاها من شفتيه فلم تفلتها إلا بعد أن استحمت فى مياه اللذة.

جلست على الفراش وجلس إلى جوارها، فقفزت فوقه وأعملت فيه شفاهها. قبلته في كل جزء من وجهه وصدره وطلبت إليه أن يعتصرها ففعل، إلي أن انتقلت على كرسى كبير ومريح.. وأسندت رأسها على كفيها وانخرطت تبكى وتبكى.

ربت نادر على كتفيها عدة مرات، ثم استدار متوجها نحو الباب.. إلي الشارع.. إلى الهواء.. فتح صدره لتخرج الحيرة والقلق ويدخل الأمل فى رؤية صحيحة.. فمازالت الأرض التى يقف عليها تهتز بشدة.. أحس بصدى وقع قدميه يتبعه.. السكون شامل والفضاء أبكم، لكنه مختلج بهمهمات مبهمة ويكاد يشم روائح الغدر.. فراغ عاصف يلقى به لفراغ عاصف.. فر من قلبه الثبات، فجأة بهر عينيه ضوء مشعل اقتحم أعصابه وقلبه المسكون بالظلمة.

كانت بانتظاره مجموعة من أقوى شباب نيامى.. باغتوه بالحبال التى ألقيت عليه وشلت حركته.. لفوها بسرعة حوله، حملوه قبل أن يصدر أى صوت، فقد كان يأمل أن يقاومهم ويضربهم جميعا، لكن ذلك لم يتحقق، وضوء المشعل لازال مسلطا على عينيه.. ضربه أحدهم بخشبة كبيرة على رأسه. فقد الوعى.. ركضوا به والفجر يوشك على البزوغ حتى النهر.. ألقوه بأقوى ما يملكون من عزم.. وتريثوا حتى غاص فى الماء. ثم انطلق كل منهم فى طريق.

(١٢)

قالت له السلطانة عندما أنبأها بما حدث .

– ذنبى .. فما كان يجب أن تتركنى وأنا فى تلك الحالة .

– وما العمل الآن ؟

– اطمئن سأقطع لك دابر المجرمين .

– يا سيدة البلاد .. المشاكل لن تتوقف .

– ستتوقف إذا قلت لى : يا أوسة أنت لى ، وأنا لك .

– مازلت أطلب فرصة للتفكير .

– غدا صباحا .. أمر عليك لننطلق فى رحلة قصيرة .

خرج من عندها وهو على ثقة أن الأمر لن ينتهى عند هذا الحد ، إذا كان الله قد ألهمه القدرة على الخروج من هذا المأزق حيث ألقى به مقيدا فى ظلمة أعماق النهر ، فمن يضمن له أن يتمكن من العودة إلى الحياة مرة أخرى .

من الذى يمكن أن يمد له يد العون .. خطابها لن يسكتوا .. لاسبيل للإفلات .. لقد تم صيده ووضعه فى شرك لافكاك منه ، وهو يشعر بالعيون الكثيرة التى ترقبه وتوخز بدنه بنظراتها .. إنهم رجال كثيرون يترصدونه ويقتفون أثره أنى ذهب ، ويتابعون بعيونهم الخرزية الفئرانية كل حركة من رأسه ويديه ، بل إنهم ليتابعون نظراته ويذهبون حيث تذهب .. وهم يحسبون عليه حركاته وسكناته من أجل الإيقاع به إلى أن يتحقق هدفهم المنشود . لقد أصبح هدفهم واحد وهم الخصوم.

في صباح اليوم التالى ..

انطلقت بالشيروكيه ذات الزجاج الفيميه الأسود .. السيارة على شكل حذاء طويل البوز .

صباح بارد لكنه لذيذ ومنعش .. الوجود يفتح عيونه على دنيا جديدة مشرقة .. الشمس الوليدة تمس الكائنات بضوئها قبل حرارتها .. النخيل على الجانبين والحفر كثيرة في الطريق الإسفلتي الضيق العجوز ، السيارة لا تعبأ والسلطانة بنفسها تقود ، إلى جوارها نادر الذى يجلس في وداعة برغم حالة التوجس التي تستقر في قاع روحه .

قالت له : هذه الرحلة كنت أعتزم القيام بها منذ أسابيع، لكن حادث المعبد عطلها .

قال نادر : هل تحبين أن تقودى سيارتك بنفسك ؟

– ليس دائما .. أحيانا أود أن أكون وحدى .. وحدى تماما .. ما أروع هذا ! لا أحسب أنى وحدى فى هذا المزاج .. لابد أنك كذلك .. تتولاك رغبة أحيانا فى الوحدة ، وقد تدفعك رغبتك في أحيان أخرى للارتماء في أحضان الناس أو في لقاء شخص واحد فقط .

– هل أنا فى هذه المرة هو ذلك الشخص ؟

– نعم ..

– ولماذا خرجت دون علم أحد ؟ هل هذا يليق بسلطانة ؟

– واحد فقط هو الذى يعلم ، وهذا يكفى .

– ومقصدك من الرحلة .

– زيارة بعض المقاطعات والقرى .

تنهدت بعمق واستأنفت :

– أجزاء كثيرة من نيامي تعانى الفقر المدقع وخالية من أى خدمات ولابد من زيارتها .

– ألم يكن من الأفضل زيارتها مع فريق من الخبراء .

– ذلك بالطبع سوف يحدث، ولكنى أود رؤيتها أولا وأنت معى .. لنفكر سويا أو نمهد بالأفكار .

– مازلت مصرة إذن على ما فى رأسك .

– جدا .

تطلع نادر عبر الزجاج إلى ما حوله .. الأرض وعرة ، وقاحلة إلا من بعض النباتات الشوكية .. أشجار عريانة وكئيبة .. صمت وفقر وخلاء بلا نهاية .. ضايقه أن السلطانة لم تأخذ رأيه فى الرحلة ، وتساءل عن مدى تسلطها.. لم يستطع الإجابة ، لكنه قرر وضعها تحت الاختبار فى هذه النقطة بالذات ، فليس أسوأ منها .

قالت له : خلفك صندوق به كل ما تشاء من مشروب ساخن وبارد ، وهناك الطعام أيضا .. هيا .. قدم لنفسك ولى مشروبا .

استدار .. فتح الصندوق وأخرج ترموس شاى وصب فى كوبين ومد إليها يده اليسرى بكوب وهو يقول :

– واضح أن نيامى مجرد قرية .

– مكونة من عدة قرى تختلف فى العمران والمساحة .. العاصمة دوبى فى الاتجاه الآخر ، وأنا لا أميل إلى العاصمة .. اخترت هذا البيت البسيط لأكون قريبة من الناس ، وسوف أخذك يوما لترى الشواطىء وبعض المعالم الأثرية التى تحتاج إلى ترميم وصيانة، وتجميل الطريق المؤدى إليها وعمل الدعاية اللازمة .

أعادت إليه الكوب واندفعت تصعد أحد التلال وأدارت الراديو .. سألته :

– هل سمعت الموسيقى النيامية ؟

– لا ....

– سوف تستمع الآن لبعض هذه الموسيقى وآمل أن تعجبك .

تناهت إلى آذانه موسيقى رتيبة ذات إيقاع واحد مطرد دون إبداع أو تلوين .. انشغل عن الموسيقى بمتابعة الطريق الذى بدا خطرا يواصل صعوده وضيقه وتزداد وعورته .. السلطانة تقود بجسارة وتتحدث دون أن يتملكها أى شعور بالتوجس . أمسك نادر جيدا بمقبض الباب الأيمن وأبقى يده اليسرى حرة لتستند وقت الحاجة على التابلوه المقابل .

طرق ثعبانية مرعبة تلتف عشرات المرات حول سلاسل جبلية شاهقة الارتفاع .. السحاب يقترب ، والسلطانة تنطلق وقلب نادر سقط فى رجليه . قالت :

- نيامى ليست كلها جبال ، نصفها الجنوبى تنتهى عنده هذه السلسلة من الجبال التى تمتد إلى عدة دول صغيرة مجاورة هى بيرام ودودو وشانتال وكابال وماسيندا ..

ظلت الشيروكيه تصعد كطبق طائر .. مقدمتها أعلى من رأس نادر حتى لايكاد يرى شيئا إلا شبح الموت .. ويزداد رعبه مع سقوط أشعة الشمس على سطح السيارة البراق .

المرأة العجيبة تقول له : هذه الجبال ترتفع لأكثر من خمسة آلاف متر وأريد أن تشاركنى التفكير فى كيفية استغلالها سياحيا ..

فقد نادر النطق أو كاد .. لم يكن يسمعها لأن خفق قلبه فى قيعان روحه وعقله كان عاليا ، مضى بإلحاح زائد يدعو الله أن يحفظه وأن تنتهى هذه الرحلة على خير ..

السيارة تواصل الصعود والدوران ، تمر الجبال عن يمينه مرة ومرة تكون أمامه ، وكأن السيارة توشك أن ترتطم بها ، ومرة يلحظ أنها دارت فأصبحت على يسار السلطانة التى لاتكف عن الثرثرة والضحك ..

قالت له : يبدو أنك مرعوب .. غير راض عن الرحلة .. لماذا لاتشعر بالسعادة ؟ اهدأ تماما واطمئن .

كان يود أن يبكى ، لكنه ضحك من فرط المفارقة .. وتعجب من حديثها عن السعادة ..

قالت :

– اسحب هذا الدرج .. به اللب والسودانى والبندق .. قزقز .. القزقزة تصرف القلق ..

فكر أن يسحب الدرج ، لكنه لم يرد أن تترك يده مقبض الباب .

– هيا .. اسحب الدرج وضع قليلا من اللب فى يدى ..

سألها :

– هل لديك موعد فى السماء ؟

انطلقت تضحك وتضحك .. بل إنها ظلت تضحك فى الأيام التالية .. كلما تذكرت هذا السؤال .

– ما كل هذا الصعود ؟ أنت قلت أنها رحلة إلى الأقاليم وقراها ... نحن الآن اقتربنا من يوم القيامة ..

عادت تضحك ..

عبرت رأسه فكرة خاطفة ، لكنها بالطبع لم تستقر ، لأنه لولا الطريق المجنون والسيارة المجنونة لهجم على السيدة المجنونة وتخلص منها .. وعاد ولو ماشيا .

قالت : سوف نذهب إليهم .. هذه الرحلة من أجلهم ..

– وأين يسكنون ؟

– فى سابع أرض .

خبط رأسه بيده اليسرى ، وخطف نظرة للسلطانة ولم يجد الكلمات المناسبة .. قرر أن يصمت، لعل ذلك يدلل على عدم رضاه ..

بعد لحظات ، قالت له :

– ما بك ؟ تكلم .. هناك أشياء كثيرة تحتاج إلى رأيك كما أنى أردت أن

نكون وحدنا لتحدثني عن نفسك .. ولا تنس أنك في المرة السابقة هربت مني .. لا أظنك اليوم تستطيع ..

ظل لانذا بصمته المهدد ، بينما السماء تقترب .. لم يعد قادرا على الصبر .. بعد لحظات رفع صوته المشبع بالغضب :

– ما الحكاية بالضبط يا أوسه ؟

اضطربت يدها القابضة على عجلة القيادة وكانت الأخرى تضبط النظارة ذات المرايا البراقة وترفع خصلة شعر تدلت على عينيها ..

صرخ من جديد : حاسبي يا أوسة ..

اهتزت السيارة واضطربت بين اليمين واليسار بسرعة وكادت تسقط في الهاوية .. الهاوية التي لايمكن تصورها ، ولو رأى أحدهما العجلة اليسرى ونصفها في الفضاء اللانهائي لمات قبل موعده ..

اعتدلت السيارة وواصلت طريقها دون أن تتوقف السلطانة عن الضحك .. ثم قالت لنادر في نعومة زائدة ودلال :

– أريد أن تناديني دائما باسمي .. هذه أسعد لحظات حياتي .. هيا يا نادر .. نادني .. هيا يا زوجي الحبيب ..

– أوسة ..

– يا ألف نعم .. مليون نعم .

– أرجوك ..

– أنا التي أرجوك

– أنت مجنونة ..

– أعرف وتزداد معرفتي وتتأكد لأن هذا رأيك .

– هل يعرف الشعب ذلك ؟

– أظن .. المهم أنت ..

– أقول رأيي إذا انتهت هذه الرحلة الملعونة ..

- لا تقل هذا .. أنا أشعر أنها ستكون أجمل رحلة فى حياتى .. يكفى أن تقرب كل منا للآخر ويترسخ التعارف ويتعمق الفهم ، وأهم من كل هذا أن تختفى المسافات والحواجز ..

عاد للصمت ، فانتظرته لحظة ثم دعته للكلام ..

تنفس بعمق ليخفف عن صدره جبال الغضب المطبقة عليه .

تحدثت إليه فأصر على عدم المشاركة .. إلى أن رأى أخيرا وبعد أكثر من ساعتين الأرض الجبلية التى تسير عليها السيارة فلم يكن يرى إلا سطحها اللامع المدبب .. غيرت السلطانة سرعتها إلى سرعة أكبر وقد انفتح الأفق أمامهما وبدت السحب قريبة والأرض مستوية .. لم تعد هناك جبال ، فقد وصلا إلى القمة .. دارت عدة دورات سريعة ومجنونة فى الساحة الخالية ، ثم توقفت فجأة وقالت : لا تغضب منى .. أريد سعادتك .. انتهى عهد الرعب .. هيا لنهبط ونرى الدنيا من هنا ..

هبط نادر وتعجب من قمة الجبل .. ملعب كرة يمتد بلا نهاية .. أرض ناعمة وملساء ، لا أثر فيها لصخور أو نتوءات أو حفر أو حتى مجارى للمطر، لو سواها بلدوزر أو جرار بمنتهى الإتقان لما خرجت من سكينه كما هى الآن ..

تنشق الهواء العليل المشبع بحلاوة القرب من السماء .. نبيلا كان وصافيا ... نقيا وعفيا .. قفز عدة قفزات ، ثم أسرع يجرى ويجرى .. جرى بمنتهى السرعة ، وارتد يجرى ذات المسافة .. كان كالطائر الحبيس لسنوات، آن له أن يعانق .. الحياة .. الحرية .. الانطلاق .. الفضاء .. الهواء.. الطبيعة .. الأفق المفتوح .. الشمس المشرقة .. الجمال .. روعة البهاء .. مفردات كل عالم جميل .

عندما عاد كانت السلطانة قد فرشت على الأرض ، ومدت المائدة العامرة..

تمدد على ظهره وبسط ساقيه وذراعيه إلى أقصاها ، كل منها فى اتجاه .. حدق فى السماء الشفافة ، حاول أن يغوص فى الزرقة الصافية ليعرف ماذا وراءها .. استطاع بعد لحظات أن يكتشف أن وراءها زرقة صافية ، وزرقة أكثر صفاء .

– يا الله .. ما كل هذا الجمال ! الطبيعة مازالت تخبىء عنا الكثير .. لعنة الله على المدينة ..

اختفت السماء فوقه مباشرة فقد ركبته السلطانة ونظرتْ فى عينيه ولثمت بمنتهى الرقة شفتيه ، واصلت تقبيله وهو راض بعد أن انقضى عهد الرعب .. كانت تستند إلى يديها فهبطت فوقه ووضعت رأسها على صدره وأحاطها بذراعيه .. مضت تتحدث وتحلم وتحكى وتتكلم وتحلم وتسأل وتجيب ، ثم نهضت شبرا ولثمت شفتيه وقالت : هيا لنتناول بعض الطعام والشراب .

كاد ينسى تماما كل ما عاناه فى الطريق الخطر ..

رأى من علٍ عشرات القرى .. كأنها حصوات ، بيوتها تشبه حبات الفول ولا تكاد الحركة فيها تبين .

– انظرى إلى قراك يا سلطانة .

– أعرفها ، لذلك أريدك معى .

– هذا عمل يحتاج إلى عقود وعقود .

– المهم البداية الصحيحة والإخلاص والمثابرة .

– المشكلة لا يحلها زوج .

– الزوج المخلص والقوى ركن مهم .

– المهم حقا طبيعة من يقفون بين الحاكم والشعب .. فى الأغلب منتفعون وسماسرة ومنافقون وأكثرهم أفاقون يعرفون من أين تؤكل الكتف .. فلاح الحاكم مرتبط بتنقية هؤلاء الطغاة أولا بأول ولا تخدعه رقتهم وأدبهم فهو أدب الثعابين .

– والحل .

– الديمقراطية .

– أهم من الديمقراطية العدل .

– لن يتحقق إلا بها .

– ساعدنى .

– التقدم حالة تتلبس الشعب جميعه .

– بالتدريج نصل .

– التعليم والديمقراطية ، هما البداية .

– بل البداية معهد للقادة يتدربون فيه على أصول قيادة شعب متخلف كما دربت أنت حراسى على سبل الدفاع ..

– فكرة لا بأس بها إذا وجد المدربون، حتى لو أجانب .

– سوف أفتش أولا عن أبناء البلد .. لن يتسرب اليأس إلى قلبى ، لكنى أريد دعما نفسيا وشخصيا متواصلا .. لن أجد مثلك .. أنا ثقتى فيك كبيرة .. وهذا الشعب الطيب يجب أن يخرج إلى الحياة . قبولك البقاء رسالة إنسانية إلى جانب كونها علاقة عاطفية ..

لم يكن يود أن يبرح هذا المكان .. توقع ألا يكون له مثيل فى العالم ، عاد يركض فى خطوط مستقيمة وخطوط ملتوية ويقفز إلى أعلى ويمارس رياضته بضرب الهواء .. يتنفس بعمق إلى أن أعلنت السلطانة تأهبها للرحيل .. وأنبأته بخبر ربما يسره .

– ستكون العودة من طريق آخر هابط ومتدرج وأكثر أمانا .

احتاجت السلطانة أن تضغط باستمرار على الفرامل ، بينما كان نادر أقل قلقا ، وأكثر حرصا على مطالعة المشاهد المختلفة من أعلى .

أشارت له على المناطق الأثرية البعيدة التى تتطلب العناية ، وأشار لها على الجبال الخضراء قليلة الارتفاع والبيوت الجميلة التى تتناثر عليها ..

أخذته الدهشة وهو يرى الوديان السحيقة وسحب بيضاء تتهادى وتعلو صاعدة من تحت إلى أعلى ..

أشارت له على قطع كبيرة من المرمر تظهر من جوانب بعض الجبال ..

وأشار لها على القرود التى تتقافز فوق بعض المصاطب التى نمت عليها الأشجار وانتشرت فيها الخضرة .. أشارت له على مساحة كبيرة من الأشجار على منحدرات جبال ، وسألته إن كان يعرف ثمار هذه الأشجار ، فنفى معرفتها ، أخبرته أنها أشجار البن الذى شرب قهوته منذ قليل وامتدحه بشدة .

أشار لها على عدد كبير من الخيام ، فقالت : إنهم ضحايا السيل الذى سحق بيوتهم الطينية وحولها إلى أوحال ، وهذه الخيام بالطبع مؤقتة .

أشارت له على التلاميذ الذين يتلقون العلم فى الخلاء تحت الشجر .. كل شجرة تحتها عشرون تلميذا والسبورة معلقة على جذع الشجرة والمدرس الذى يلبس الصندل مهترىء الملابس يشرح فى اهتمام قواعد الحساب .. أما الأطفال فأغلبهم حفاه .. والظل العنب يكاد يغطى فدانا من الأرض .

أشارت إلى قطعان كثيرة من الأبقار والماعز والحمير تنتشر على مساحة كبيرة من المراعى فى منطقة «دوكو» والمنازل الصغيرة تلتف حول المراعى الشاسعة فى شبه دائرة ، لوحة بديعة لنشاط إنسانى وحيوانى وديع .. متناغم وعامر .. ساكن وساحر .

قال لها : لابد من مصانع للمواد الغذائية .

– موجودة .. كذلك مصانع للملابس وبعض الأدوات المنزلية ، لكننا نطمع فى إقامة مصانع لإنتاج سلع أكبر وأهم .

– البنية الأساسية أولا ..

اجتازت الشيروكيه سيارات نقل قديمة وعربات كارو تحمل المحاصيل الزراعية والأولاد الذين يرتدون نصف ملابس يضحكون ويهللون .

رأى نادر المساحات المزروعة بلا نهاية ، منقوشة بأعداد غفيرة من النساء والرجال والأطفال ..

أخيرا توقفت السيارة أمام قصر كبير وكانت قد قطعت أكثر من ساعة بين السجاد الأخضر المحمل بالثمر والمحاصيل والحبوب والبيوت المنسية ، وبين تلويح عاطفي جياش بأيدى كهول الفلاحين وأطفالهم ، دون أن يعرفوا أنها السلطانة .. على أساس أن هذه السيارة لابد يركبها عظيم .. الفلاحون هم الفلاحون في كل مكان .

القصر عبارة عن هيكل ضخم تحمله أعمدة رخامية فاتحة الاحمرار وأبواب خشبية كبيرة مزركشة .. يصعد الداخل إلى القصر عدة درجات عريضة بعد أن يعبر ممرا طويلا محاطا بالياسمين والريحان .. تعلو القصر قبتان فضيتان تعكسان أشعة الشمس وأنوارها ..

قالت : هذه الاستراحة بناها زوجي الراحل .

قال : جاءت في وقتها المناسب .

رحب بهما الخدم .. اقتادته إلى الحديقة الخلفية .. أثارت إعجابه بخضرتها ونضرتها وتناسق الأشجار وتنوعها والممرات والورود التي تحيط بها ، والنوافير البديعة التي تتفجر مياهها من أفواه النمور والأسود وآذان الأفيال وأعضاء ذكورة الأطفال .

سحبته إلى ممر طويل تحت أقواس الشجر وخمائل العنب حتى بلغت عيونا يفور منها الماء الساخن .. تتدفق من هضبة خلفية كبيرة ، قصد السلطان أن يقيم القصر إلى جوارها .. طلبت من نادر أن يخلع ملابسه وينزل إلى الحوض .. رأى الدخان الصاعد فتهيب .. سبقته وخلعت ملابسها إلا قطعتين وهبطت .. المياه ساخنة ولذيذة .. العمق يزيد قليلا على المتر .. عندما نزل نادر إلى المياه واستشعر دغدغتها لجلده قال لها :

– لن أخرج من هنا ..

الحوض بيضاوى ، طوله نحو عشرين مترا وعرضه حوالى سبعة أمتار .. مضت السلطانة تسبح وتمشي على يديها فوق الأرضية الملساء ذات اللون الأخضر .. طلبت من نادر أن يشاركها لهوها .. انطلقا يلعبان ويتعانقان كسمكتين عاشقتين كبيرتين .. وبعد ساعة صعدا إلى غرفة النوم .

أحس نادر رغبته في التهامها وتقدم عازما على ألا يتوقف .. عاونه انتشاره وجسارة أعضائه على تلبية دعوة الشهوة ، أدرك من حالته أنه يستشرف المستقبل ويثق بفلاح المشروع ، فمضى لا يلوى على شيء .. يخفض الأنثى ويرفعها إلى أن مال ومالت ..

تواصلا بقوة واندفاع .. اندمجا والتحما .. تصاعدت تنهدات الحفر العميق ، وصال الفتى وجال ، حتى نالت ونال ، وتحققت السلطانة للمرة الأولى من طعم الرجال .. الرجال الرجال .. فنامت على صدره قليلا ثم قامت عليه وقد أقسمت ألا تدع مليمترا فى جسده إلا قبلته حتى مواطن ذكورته وحدائقها .. أفاضت عليه من حنانها ودفئها ووهجها ما أنطق منه الساكت وحرك الساكن ، فاستشعر الشهوة وقام إليها من جديد.

سالت السيول على أجفان الجبال فارتوت الأرض الظمأى ، وتمددت راضية بالقرب من القمم العالية التى مالت لتقبل أغصان العشب الوليد . استسلم الجسدان للدعة وسرعان ما غابا فى نوم عميق، أعقبه غذاء شهى ، وبعد الغروب اتخذا طريق العودة .. السيارة الرشيقة تنهب الإسفلت الناعم دون أى معاناة تذكرها بطريق الصباح التعس .

فى المساء زارته دامى .. مضت تتكلم بسرعة يغلبها التأثر والتوتر ، وقالت له :

– أعرف كل شىء .. إذا رضيت الزواج بها فاعلم أنك توقع نفسك فى خدعة كبرى وتكون كمن يحاول جمع المطر فى غربال .. بل إن حياتك ستكون فى خطر دائم .. إنها لا تستقر على حال .. هذه ابنة عمى وأنا

أعرفـها .. قد تبدو لك الآن هادئة وديعـة لكنها مجنونة ، سـرعان ما تثور وتغضب وتقلب لك وجهها وتطلع عليك بوجه آخر .. ساعتـها ستندم على اللحظة التي ألقيت فيها رجولتك تحت قدميها .. إنك مثل كل الرجال تغتر بكلامـها المعـسول وتتـأثر بما يقـال عنهـا .. لكم ضـحكت على الرجـال .. والشعب كله الآن يعيش هذه الخدعة .

حاولت دامي أن توقف رعشة يديها ، لكن جسدها كله كان ينتفض .

– أنت سـمـعت من نانين أن جـدة أوسـة كـانت سـاحـرة وعرفنـا هذا من جدتي لوالدي .. تحدثت به لوالدي باتيه ، فـقـد كـانت أمـها تحـاول إغواء والدي.. كانت جدتها تأكل الأطفال وأمها تأكل اللحوم النيئة ، ومن المرجح أن تكون السلطانة كذلك .. العائلة كلها من الأسلاف إلى الأحياء لديهم نفس المواصفات الوراثية .. هذه مسألة شبه يقينية ، لكن السلطانة تغطي على كل قبيح وتجعل الدميم جميلا . والناس عبيد الحكام .. أنت تعلم يا نادر أنني أحببتك من أول نظرة .. وأخفيتك لأحافظ عليك .

التقطت أنفاسـها بصعوبة .. استـأذنها لدقيقة رفضت ، لكنه قام وعاد بكأس به عصير مانجو .

استأنفت .

– أرجوك .. انقذ نفسك ودعها .. تعال عندنا وسأسلم لك كل ممتلكاتي.. ألم تلاحظ أن أمي أحـبتك .. كلنا نـحبك .. دعك من أوسـة المتـغطرسـة .. سوف تتعب جدا .. بل سوف تموت إذا لم تسمع كلامي .

تنهد نادر وقال لها :

– أنا لا أريد أن أسمع كلامك ، أنا أريد أن أعود إلى بلدي .

– حسنا سنفر معا .. لا تقلق ، سأعد كل شيء .. هل أنت مستعد ؟

– من الآن .. فكيف السبيل إلى ذلك ؟

– ليكن فجر بعد الغد .. ما رأيك ؟

– موافق .

– سأجهز قاربا وما يلزمنا لثلاثة أيام على الأقل .

– كيف أعرف أنك أعددت كل شيء ؟

– سأعطيك الإشارة . ومن الآن اعلم أنه فجر بعد الغد .

– سيمر نهار واحد .. أليس كذلك؟

– بالضبط .. مكان اللقاء سيكون عند شجرة البندق المائلة بعد سور مزرعتنا .. هل تعرفها ؟

– نعم .. أنت فتاة طيبة جدا يا دامي .

– لن أجعلك تشكو مني أبدا .. ستعيش حياة خالية من المشاكل .

– هل أنت مصرة على سفرك معي ؟

– لن أتخلى عنك أبدا .

– حياتنا في بلادنا مختلفة .

– سأغير كل شيء في طباعي من أجلك ، سأتخلى عن كل ما تعودته وتعلمته لكي أكون بالقرب منك .

– أعدى إذن المطلوب والله يحفظنا .

– سوف يحفظنا لأن النوايا مخلصة .

– وأهلك .

– لا تقلق .. أمي مشغولة بأبي أكثر من أي شيء آخر .

– نسيت أن أسألك ألا توجد وسيلة أخرى للسفر كالخيول مثلا .

– بعدنا مباشرة هناك جبال عالية جدا وصعبة الصعود والحل هو الزورق ولو لمسافة يوم حتى نبتعد عن البلد وعن الجبال .

– إذن إلى اللقاء .

– حافظ على نفسك من أجلي .. أرجوك .

(١٣)

لم يرد أن يشكو للسلطانة ما بدر من خطَّابها فجر اليوم بعد أن عزم أن يهرب بمعاونة دامى .

فقد هجم عليه بعض رجالهم وهو فى طريقه للركض والتدريب مع طلعة الفجر الندى ونسماته الرقيقة .. لكنه استطاع أن يضرب التسعة وحده إذ كان يتوقع قدومهم بعد ما فعلوه مسبقا، وكانت لهم المبادرة والمفاجأة التى اضطرب لها ولم يستطع أن يتصرف بشكل تلقائى وفورى ، وعندما بدأ يوجه ضرباته كان الموقف المناسب قد مضى وفقد قدرته على الحركة .

أما هذه المرة ، فلم يستطع أحد منهم أن يرى يديه : كان ساعده ينطلق بسرعة لا تلحظها أى عين ، محملا بقبضة معروفة وحديدية لتنقر الخصم نقرا خاطفا ومؤثرا وكاف ليفقد توازنه . وقبل أن يتبين حقيقة ما حدث تكون القدم قد طارت ودارت وحامت ثم حطت بقسوة على جبهته .

خفيف كفراشة ، يقفز ويحوم ، وكالنحلة يلدغ دون أن يدمر ..

حدق فيه خصومه طويلا وهو يتقلب فى الهواء كأرجوحة سريعة لا تستقر ، حاولوا البحث عن منطقة الهجوم وزمانه .. عن الثغرة التى ينقضون منها عليه .. كان الأمر معقدا بسبب ذلك الرعب الذى يبثه ساعداه وقدماه التى لم يعرفوا خطتها وطريقة عملها.. الشىء المؤكد كان الإحساس العميق بأن الرجل قوى بشكل غير عادى ، والغريب أن إمكانياته البدنية لا توحى بكل هذه القوة، ولا يتصور أحد أنه يستطيع أن يضرب التسعة بهذه السرعة ..

يأتيهم من حيث لا يتوقعون .. يضرب في الساقين وفي الوسط والرأس والعنق والبطن .. يهاجم من فوق ومن تحت ومن الأجناب ومن كل الجهات ... ولولا الخوف من ضرباته لوقف أعداؤه يشاهدون براعته غير حافلين بالمهمة التي كلفوا بها ، في محاولة لأن يحصروا عدد أياديه وأقدامه الكثيرة .

حاول أن يقضي نهاره في حركة حرة بصحبة باسال كصديق وليس كمترجم .. دعاه لزيارة كهنة المعبد ، وشكرهم للموافقة على زواجه بالسلطانة وأيد نادر الفكرة ، ثم قام بزيارة المتحف الذي أقيم منذ عام ويضم كل تراث الأجداد وأوراقهم وملابسهم وأوانيهم ووسائلهم في البناء والطهو والمهن المختلفة وتطور الأحوال في كل عصر .. وطبيعة جيولوجيا البلاد وتاريخها وسماتها الجغرافية ، وبالمتحف قسم للأحياء المائية والبرية ، تعجب لمشهد الهيكل الضخم للديناصور المنقرض الذي يشغل قاعة مستقلة .

عندما استأذن منه باسال لدخول دورة المياه وإحضار بعض الكتيبات ، فوجيء نادر بدامي أمامه تبلغه بأنها أعدت كل شيء فعليه ألا ينسى موعده غدا في الفجر .. مع صوت الطائر الذي يصيح كل ساعة ، واختفت بسرعة وراء الديناصور قبل أن يسألها السؤال المهم ، واستبعد بالطبع أن يكون وجودها صدفة .

دعته السلطانة لتناول العشاء معها فادعى المرض .. أرسلت إليه الطبيب الذي سأله عن حاله ، وحدثه نادر عن المغص الذي يوشك أن يفتك ببطنه منذ عاد من المتحف ، وأرجع الطبيب ذلك إلى احتمال إصابة المعدة بالبرد وأمر له بالعلاج المناسب .

حرص نادر على ألا يتحرك من غرفته ، وكانت هذه نيته منذ البداية .. أن تتاح له الفرصة كي يفكر في المسألة برمتها قبل أن يقدم على الخطوة

الأخيرة .. هاهي التجربة الغريبة توشك على الانتهاء .. ما أروع أن تحط النهايات في الوقت المناسب وتنحل الخيوط المعقدة .

قبل أن يتشقق جدار الليل وتطل أنفاس الصباح ، وقبل أن يصيح الطائر صحيته .. كان مستيقظا تتقافز في رأسه الأفكار والوساوس والهواجس .. أحس أن جدران الغرفة تكبله ، فكر أن يتدرب قليلا ثم يسبق دامي إلى الموضع الذي سيشهد بداية رحلة العودة .

خرج وفتح بوابات صدره للهواء الطازج وعبأ رئتيه بالنسيم النقي .. مشى في البداية مشيا حثيثا يكاد يلمس حافة الركض ، ثم تنامى الإيقاع وأسرعت الأقدام ودارت الماكينة وأطلق ذراعيه أفقيا ورأسيا .

أجرى تدريبات الرقبة والخصر .. ضرب كعادته جنوع الأشجار بقدميه ، وحاول عدة مرات لمس أغصان الأشجار بقدمه اليمنى ثم بقدمه اليسرى .. تحدى نفسه فأسقط ثمار شجرة المانجو بقدمه .. مضى يسقط بقدميه بعض الثمار العالية ، ويضرب الأغصان بشدة ويرى فيها رؤوس اللاعبين الذين ينافسونه .. حتى ظهر اللاعبون الخصوم حقا .. كانوا نحو عشرين .. قرر أن يضربهم جميعا .. وكانت الماكينة قد أخذت سرعتها وانطلقت عجلاتها فأخرجت تروسها .

مضى بقدميه وذراعيه ورأسه يسقط منهم الواحد بعد الآخر .. أحدهم يمسكه من الظهر ويفلت ، وأحدهم يمسكه من الذراعين ويفلت .. استمرت المعركة طويلا حتى شعر بالتعب وبعدم قدرته على حسم اللقاء ، فمازالوا قادرين على النيل منه ، فجأة قرر أن يجري تاركا إياهم ، فطاردوه بحماس بعد أن تجدد أملهم في إسقاطه أو إنهاكه وجره إلى حيث يفعلون به ما يشاءون .. كان متعذرا دخول القصر بعد التحذيرات المشددة من السلطانة بحراسته.

والتأكد من شخصية من يود عبور البوابة ، وطبيعة الزيارة والحصول

على موافقة نادر أولا.

هل قدر له أن يكون منطرحا دائما تحت سيف الموت المؤجل؟

لم يشأ أن يتجه إلى دامي ، لأن المطاردين سيفسدون الأمر كله . جرى في اتجاه الغابة الشمالية ، حيث مر بالعشش الصفيح التي يقيم فيها عدد كبير من الفقراء .. لمح خيوط الدخان التي كانت تتصاعد منها .

.. كان كل شيء دخانيا ، والنور في الأفق زغب .

فكر في أن يدخل إحداها ، لكنه طرد الفكرة ومضى يركض في الطرقات الترابية المنداة نحو الغابة .. التفت سريعا إلى الخلف فلاحظ اتساع المسافة بينهما ، ومع ذلك زاد من عدوه حتى يجد الفرصة للاختباء لحين العودة إلى دامي .. صفعته الأغصان المتدلية ، إلا أنه مضى مذكرا نفسه بأنه الفصل الأخير والخطوة المهمة نحو الإنقاذ ، وبداية رحلة العودة .. تلوى كثيرا وقفز كثيرا وهو يشق طريقه الملتوى بين أشجار الكافور والصفصاف والسرو .

انزعجت الطيور والحيوانات التي اقتحم راحتها ذلك الغريب .. جرى وجرى حتى وجد نفسه فجأة يرتفع عاليا في شبكة من حبال الليف اختطفته وألقت به فوق الأشجار .. برغم ذلك كان السكون لا يزال مرميا على الغابة والطيور في الأعشاش تطعم الصغار دفئها الحنون .

بقدر وقوعه في شباك الدهشة مما جرى إلا أنه حمد الله كثيرا لأنه أنقذه من هؤلاء الملاعين . وكان يفكر قبل ثوان من وقوعه في الشرك : إلى متى سيظل يجري ، وهم يلاحقونه ؟ ، ولا شك أنهم بعد قليل سيطورون من هجومهم ، وقد يكون لهم معاونون آخرون ينضمون إليهم ، أو لعلهم يستدرجونه إلى مواقعهم حيث ينزلون به ما يشاءون من التنكيل ، والأهم أن يضيع الموعد مع دامي التي أعدت كل شيء للفرار .

ظل غارقا في الدهشة حتى شاهد خصومه يركضون في نفس الاتجاه

إلى أن غابوا تماما عن عينيه ، وشرع يفكر فى سبيل التخلص من الشرك الذى كان قابضا عليه ومحيطا به . فهم طبعا أن هذا الشرك أعده الصيادون الذين يقيمون في عشش الصفيح ليلتقط لهم غزالا أو وعلاً أو خنزيراً ..

واصل بحثه عن سبيل الخلاص حتى عثر بطرف العقدة التى تنغلق على الشرك ، كان عليه أن يقترب من أحد الأغصان لأن الشرك بعيد ، اضطر أن يهتز بالشبكة عدة مرات بحيث إذا فك العقدة وهمت بالتخلص منه يقفز مندفعا نحو أحد الأغصان ، وقد حالفه التوفيق ، عانق الشجرة وأسرع يهبط . عاد بأقصى سرعة ممكنة إلى الاتجاه المؤدى إلى سور مزرعة دامي الذى فى نهايته شجرة البندق المائلة ، وقد سمع صوت الطائر وهو يمر أمام عشش الصفيح .

سمع صوت دامي تناديه من بعيد : هيا .. هيا أسرع .

دنا منها فلم تسأله لماذا تأخر، قال لها : لقد كنت .

قالت بسرعة : أعرف .. هيا .. هيا .

تعجب لردها ، أسرع معها إلى القارب الذى كان يهتز مع مداعبات الماء، فى انتظارهما متأهبا للانطلاق. ينزل نادر إلى الزورق وعندما يستدير ليمسك يد دامي ويعاونها على الركوب يراها تلوح لفضاء البلاد .. وأشجارها وتبعث إليها بالقبلات .. ولما التفتت إليه كانت عيناها غارقتين فى الدموع .

(١٤)

التجديف كان عكس التيار .. البرد شديد والأغطية لا تكفي لمقاومة مثل هذا البرد الذى لم تتوقعه دامي .. أعدت له الشاى الذى كان له فى بدنه فعل السحر .

واصل نادر بذل الجهد الخارق فى التجديف .. حريصا على أن يقطع أكبر مسافة ممكنة تبعده عن عيون رجال السلطانة ، ليس مهما أن تبعده عن عيون خطابها.. لقد اندفعت به المياه مئات الكيلو مترات بعيدا عن بلده فى يسر شديد ، وعليه الآن أن يرتد إلى بلاده من نفس الطريق ولكن بغير السهولة التى كانت فى المرة الماضية .. كان هو اتجاه النهر الطبيعى فضلا عن المشاركة القوية للسيول .

خامره وخامرها إحساس لذيذ بالاطمئنان .. فرش تأثيره على وجهيهما لأنهما ابتعدا مسافة كافية لا تمكن الأيدى من الوصول إليهما مهما كان غضبها وإصرارها ، وعلى أية حال فلن يحس به رجال السلطانة إلا مع الضحى وربما تماثل ذلك مع حالة نانين .

تطلب إليه دامي أن يرتاح بضع ساعات فلا يجد مفرا من الموافقة ، يقترب بالزورق من الشاطىء .. يربطه بحبل فى جذع شجرة .. يتنفس بعمق وتبسط أمامه دامي ما أحضرت من طعام كى يأكل ما يشاء .. بعد أن يأكل يتمدد مسترخيا ودامي إلى جواره.. يتحسس ذقنه الطويلة التى لم يحلقها منذ ليلة السيل وعزم على ألا يفعل إلا فى بيته .

تثقل جفونه وجفونها ويحسان برغبة ملحة فى النوم ، وفجأة يجلس نادر ويسألها .. تتوجس دامي من مفاجأته ووجهه الذى بدا جادا ومؤرقا .

- كيف عرفت أني كنت بالمتحف مع باسال ؟

- صدفة .

- دامي .

ابتسمت .

- سنكذب ونحن في البداية .. لا يغضبني شيء إلا الكذب .. كل العيوب ربما أتحملها إلا الكذب .

- تأكد أني لن أكذب عليك أبدا ولو كان في ذلك نهايتي .

- إذن قولي .

- إنها قصة طويلة .

- لن نصل قبل يومين وربما ثلاثة .. أهذا يكفي ؟

- أقصد نؤجل الحديث فيها حتى نصل .

- لن يغمض لي جفن قبل أن أعرف .

تنفست دامي بعمق ثم قالت :

- القصة تبدأ منذ عدة سنوات ، عندماحاولت أن أتعلم السحر ، وهذا في بلدنا ليس عيبا، وهناك كما حدثتك أمي رجال يجيدون لغة الطير والحيوان كوالدي ، ومن يجيدون السحر ، ومن يتعاملون مع الجن ، ومن يستنطقون الأرض ويعرفون ما تضمه في أحشائها، وهناك من يتعاملون مع الرياح ويستعينون بها في تحقيق مصالحهم .. وهناك ..

- دامي .. أردت أن تتعلمي السحر .

- نعم .. لكني أخفقت ولم أتعلم إلا قيادة وتوجيه الأشباح لخدمتي ..

تنبه نادر واتسعت عيناه وطالت أذناه وتساءل : الأشباح .. وما الأشباح؟

- غير معقول .. ألا تعرفها ؟

- صدقيني .. أنا لم أسمع عن الأشباح من قبل .

- الأرض كلها أشباح يا نادر .. كيف تدعي أنك لم تسمع بها ؟

– صدقيني .. لم يذكر أحد لي شيئا عن الأشباح طوال عمري .
– غريبة حقا ..
– المهم .. ما الأشباح ؟
– الأشباح كائنات مثلنا ولكن خفية ، لها عالمها وطقوسها وطباعها ونظام معيشتها وهي تعيش في شكل قبائل ولها حكام ورؤساء وقيادات .
– وكيف أمكنك أن تتعلمي قيادة هذه الأشباح ؟
– أسفة .. هذا عهد ..
– عهد !
– نعم .. أول شيء لابد أن تتعلمه قبل أي كلمة أن تقر بألا تفشي السر، وإلا لحق بك الضرر طوال حياتك ، بل وبعد مماتك أنت وكل من تحب.
اعتدل نادر في جلسته :
– ومن الذي علمك ؟
– هذا جزء من السر ويقع تحت طائلة الخروج عن العهد .
– قولي إذن ما لا يقع تحت طائلة خيانة العهد .
– عندما تعلمت توجيه الأشباح ..
قاطعها نادر متعجلا :
– قبل إن تكملي حديثك ، لماذا لم تأمري الأشباح بدفع الزورق بدلا مني وقد انكسر ظهري وتورمت يداي من القبض علي المجداف؟
– سوف تعرف سبب ذلك الآن فاصبر حتى أطلعك على المسألة كلها .
– هيا إذن أخبريني ، فنحن على أية حال لم نبتعد كثيرا عن نيامي .
– أهكذا بسرعة تريد التخلص مني؟
– إذا كانت هناك خديعة أو كذب .
– طوعت الأشباح لخدمتي ، فكانت تحضر لي ما أشاء وأبعثها لتحضر لي الفاكهة من المزرعة وتصيد لي الأرانب والحمام ، وتحرسني عند النوم

بعد أن تغطيني وتوقظني في الموعد الذى أريد ، وبعد وفاة والدى أبلغنا بأن كبير الأشباح غير راض عن بقاء بعض الأشباح مقيدين في البيت عندنا ، ويجب علينا إطلاق سراحهم .. فأنكرت صلتى بهم ولم أستطع التخلى عنهم .. مرت شهور ، وكل عدة أشهر يذكرهم أبى وتؤكد له أمى أن البيت خال منهم .. ولم تكن تعلم أن بعضها يتبعنى .

ولما كرر والدى الإشارة إلى ذلك ، قررت أن أتخلى عنهم فى أقرب فرصة، إلى أن ظهرت أنت عند النهر ، فأرسلتهم إليك فاستدرجوك دون أن تدرى حتى حضرت إلى .

- لا أصدق ما تقولين .

- فات الوقت لتصدق أو لا تصدق .

- هل أنت التى أحضرتنى من عند النهر إليك؟

- نعم .. وارجع بذاكرتك إلى .. ولكنك لن تدرك ذلك ، لأن الأشباح لا تحمل الشخص حملا ، إنها تجعله هو بأساليب معينة يختار أن يتجه هذا الاتجاه .

- ما الأساليب التى يستدرجون بها فرانسك ؟

- أولا هى ليست فرانس .

- ليس لها غير هذا الاسم .

- أنت غضبان وتتجنى فى الحكم .

- لست غاضبا ، هيا احكى كيف أرغمتنى أشباحك على فعل شىء على غير رغبتى وإنما برغبتها حتى أكون أمامك .

- يعنى مثلا هى تعرف أنك ظمآن .. فإذا أرادت أن تدفعك إلى اتجاه أوحت إليك بأن فيه ماء ، ومن الطبيعى أن تتجه إليه بإرادتك .. هل هذا أمر صعب ؟

- لا .. سهل جدا .. هل تتحدثين مع مخبول ؟! .. كيف لها أن تعرف

أولا أنني ظمآن ثم كيف لها أن توحي إلي بأن هناك ماء في الموضع الذي تختاره ؟

– اهدأ يا نادر .. ماذا جرى لك ؟ .. هذه أشباح ، لديها ملكات ليست لدينا .. هذه كائنات خاصة تمتلك ما لا نملكه .

تنفس بملء رئتيه ، ابتسم فجأة ثم قهقه .. قهقه عاليا ، ودهشت دامي من تحول حالته :

– سامحيني يا دامي .. يبدو أن عدم تعاملي مع مثل هذه الكائنات هو السبب ، ولكنك تتكلمين عنها كما تتكلمين عن الخيط والإبرة والقماش والمرآة .. شيء عادي تماما .

– عادي جدا .

عاد يبتسم ويقهقه وأصبح صالحا لاستكمال إنصاته ، كانت دامي قد خافت منه وتوجست من نتيجة غضبه ، وفرحت لأنه عاد إلى الشخص الأول اللطيف .

– هيا يا دامي .. أكملي .

– كان من الطبيعي أن تتوقع الأشباح عندما أمرتها بإحضارك أنك جائع وظمآن ، فبدأت تجذب نظرك بالثمار الكبيرة المتدلية التي يسيل لها اللعاب ، واحدة بعد الأخرى على الطريق المؤدي إليّ ، وهكذا أصبحت في النهاية تحت الشرفة التي أطل منها ، ونزلت إليك وأحضرت لك الماء ، وكان بعد ذلك ما كان ، بعملي لا بعمل الأشباح ، ولأنك كنت غريبا وجائعا فقد دعوتك ودخلت ، وخبأتك في القاعة المهجورة حتى لا أسبب أي قلق لأمي التي لم تكن بحالة جيدة ، وكانت صحتها تتراجع منذ رحل باتيه .

– هل كان أحد منهم يبيت معي ؟

– بدون غضب ؟

– هيا قولي .

- نعم.. كان هناك واحد منهم معك ، يغطيك إذا تعريت ويبعد عنك أى حشرة ، خاصة العنكبوت ، ويمنع الضوء من الوصول إليك حتى لا يؤذى عينيك ، وأحيانا كنت أكلفه بأن ينثر عليك العطر .

- آه .. الآن تذكرت .

تنهدت دامى وشردت :

- وكان هناك واحد آخر أمام الباب ليمنع أى شخص من الاقتراب منك أو النظر خلسة من النافذة .

- ألهذه الدرجة كنت من أول يوم حريصة على حياتى ؟

- بل منذ اللحظة الأولى .. أحببتك وقررت أن أحتفظ بك لنفسى ولولا الخجل لبقيت أنا مكان الأشباح لأكون دائما عند قدميك .

- دعك من قدمى وأكملى ولا تخفى عنى شيئا .. لا أحب أبدا أن أكون جاهلا بما كان حولى .

- هناك حادث لا صلة لك به عندما بدأ .. لأنه تم قبل ظهورك

- وما المشكلة ؟

- بعد أن وصلت البلد أصبح لك به علاقة .

- لا أفهم

- كانت بينى وبين السلطانة مشكلات كثيرة وتربص .

- مشكلات !

- نعم .. كانت تغار منى دائما منذ سنوات ، لأن أمها كانت تغار من أمى .. وكانت ترتب أعمال السحر للوقيعة بين باتيه ونانين .

المهم أن العلاقة لم تكن أبدا على ما يرام .. وفى مرة وكان ذلك منذ عام تقدم لى شقيق زوجها الأصغر ليخطبنى، فبذلت كل جهدها واستعانت بكل الوسائل لإبعاده عنى وسحب كلمته ..

تملكنى الغيظ وسيطر على شهورا ، لكن ناره خمدت مع الوقت .. إلى أن

عرفت أنها ستذهب إلى غرفة الإله الأكبر لإشعال شموع الخطاب واختيار واحد منهم .. عندئذ فوجئت بنار الغيظ تشتعل من جديد وبقوة حتى إنها لم تترك لى فرصة للنــوم ، أو تناول أى طعام أو الاستقرار فى مكان أو فى مقعد .. نار تأكل رأسي .. فكلفت الأشباح بإسقاط حجر ضخم على باب الغرفة بحيث لا يفتح ، والحيلولة دون فتحه بأى وسيلة .

تفتحت كل عيون نادر وتوقف عن التنفس .. كان مندهشا وغاضبا ..

– أرجوك .. لا تغضب .. أنا أعترف لك ونحن فى مكان بعيد عن بلدى وأهلى وفوق الماء وباستطاعتك أن تفعل ما تشاء .. لكننى أوضحت لك حالتى .. وأنا كما طلبت لا أخفى عنك شيئا .. أنا أطهر نفسى تماما لأجلك ولا تنس أنى صححت خطأى .

– وكيف يصحح هذا الخطأ البشع .. الذى عرض حياة شخصين للخطر .. بل للموت المحقق ؟

– عندما تعرفت عليك ورغبت فى أن تكون لى وحدى .. وشعرت أن الآلهة أخيرا ستعوضنى ، وأن الأيام ابتسمت لى فإذا بهم يقررون أن سبب هذا الحادث هو دخول غريب ويجب أن يذبح حتى يتحرك الحجر .. عندئذ كدت أفقد عقلى .. أنت لم تشعر بشىء لكنى كنت قد فقدت عقلى فعلا .. كان هذا أسوأ أيام حياتى .

– دعك من هذه الثرثرة وقولى كيف صححت خطأك؟.. يا ربى .. لم أكن أتصور أن مثلك يمكن أن يفعل ذلك ..

– أرجو يا نادر ألا تعذبنى ..

نبتت فى عينيها الدموع

– أرجوك يا نادر .. اسمعنى حتى النهاية .. خطأ وصححته .

– يا بنت الناس خلصينى .. كيف صححته ؟

– أنت لم تكن لتستطيع أن تحرك الحجر وحدك مهما كانت قوتك ولا

بمعاونة من كانوا معك من رجال السلطانة .

– ماذا تقولين يا دامي ؟ العبرة ليست بالقوة ولكن الفكرة التي وضعتها والخطة التي حركت بها الحجر .

– يا نادر .. الأشباح هي التي حركت الحجر .

فوجيء نادر بكلام دامي

– أي أشباح يا دامي .. أنت لازلت تعيشين في أوهامك .

– أقسم لك بالإله الأكبر أن هذا ما حدث .. عندما وجدت أن كل الاتجاهات مجمعة على ضرورة ذبح الغريب .. وأنا أحب هذا الغريب وأود أن أفديه بروحي .. أسرعت بتوجيه الأشباح لدفع الصخرة معك وإنقاذك من الذبح . وإنقاذ السلطانة .

أنا التي أخطأت وأنا التي صححت الخطأ .. وأعترف أن ذلك لم يكن من أجل السلطانة ، ولكن من أجلك أنت .. أنت يا نادر .. أرجوك أن تسامحني .

أشاح بوجهه بعيدا .. فسحبت يده وقبلتها . جذبها . اختطفت الثانية وقبلتها فجذبها . وأشاح بوجهه بعيدا .. قبلت قدمه .. وسقطت عليها دموعها .. جذبها من تحتها ومد يده فأمسك كتفيها وأدناها منه .. ضمها إليه .. فانخرطت في نشيج محموم . اهتز له جسدها بشدة وعلا صوت تنفسها ، لم تهدأ إلا بعد أن قبلها في جبينها وربت على ظهرها ونامت في حضنه مطمئنة .. استشعرت أن عاصفة غاضبة قد ابتعدت عنه وأوشك أن يتخلص منها ..

رفعت رأسها وقربت شفتيها من شفتيه .. أرادت أن تختبر صفاء النبع ، فقبلها بشهية ورضا ، رحب بها عاشقة .. يتبادلان اللثمات السابحة في لجة اللذة الهادرة ..

رفعت نفسها عنه وأطلت في عينيه .. بدا كأنه لم يسمع منها ما يخدش

جوهرة القلب .. قبلت أنفه .. وابتسمت ، ثم نهضت إلى مخزن المؤونة تحت الأريكة الخلفية للزورق فأخرجت من الفاكهة تفاحا وموزا .. غسلته في الماء واحدة بعد أخرى ، ثم سوت مكانا أمامه ووضعتها ، اختارت أفضل تفاحة لونا وحجما وقدمتها له بعد أن قضمت منها وقضم ، ثم قدمها لها فقضمت منها وقضم ، ثم ابتسمت في صفاء .. عاد يسألها عن أفعال الأشباح ، كان غافلا تماما عما حوله ، كأنه دخل في البللورة السحرية .. عالم غريب ومثير .. حاول أن يطلق لخياله العنان ليتصور شكل هذه الأشباح ، لكنه في النهاية أرجأ ذلك حتى يسمع منها المزيد عن جنودها غير المرئيين .

– لما انتقلت إلى قصر السلطانة وكان الجند قد وضعوني في السجن ..

– تذكرت الآن كان موقفك فيه غير سار وكان جنودك الأشباح أنذاك .

– أرجوك لا تسبهم .

– بل كانوا كذلك . فأين كانوا عندما عضني الثعبان؟

– أنت تعلم أن الأحداث جرت بسرعة وكنت أحاول أن أخفيك في المزرعة، ثم أسرعت أنت عندما رأيت الشرطة إلى القاعة المهجورة واختفيت بالصندوق، كنت مرتبكة وفي حالة سيئة، بل كنت مرعوبة.. أحس بالخطر القادم ولا أعرف بالضبط كيف أواجهه، لأن الهجوم جاء مفاجئاً دون أن أمتلك الفرصة للاستعداد.. كان يخالجني شعور أنهم لن يدخلوا القاعة لأنها لا توحي بأن غريباً قد يكون مخبئاً بها، ثم عدت وقررت إخراجك منها.. ولم أكن أعلم بوجود الثعبان.. والصندوق كان منذ سنوات طويلة مغلقاً.. بالمناسبة لقد اكتشفت بعد خروجي من السجن وذهابي للقاعة وأنا أحاول أن أقنع نفسي أنك لازلت بها.. وكنت أحدثك وأنت ممدد على الفراش.

– ماذا تقولين؟

– كنت لازلت أشعر بوجودك..

– ماذا اكتشفت؟

- اكتشفت أن الصندوق كان مثقوباً من أسفله.

- وكيف لم يعرف الأشباح بوجود الثعبان؟

- للأسف. لقد عرفت منذ سنوات أن ثمة علاقة بين الأشباح وبين الثعابين.. شيء من الود أو الانسجام أو العهد القديم.. لعل هذا هو السبب فى أن الأشباح تغاضت عن وجوده، على أساس أنه داخل الصندوق ولن يكون ذا خطر عليك.. هذا هو الأرجح، إذ لا أستطيع أن أقر بأن الأشباح تجهل وجوده.. لأن الأشباح تحس بأنفاس التراب.

- ولماذا إذن لم يخرجوك من السجن؟

- قلت لك إن الأشباح تيسر لى الطريق نحو ما أريده، لا أن تكسر الحديد مثلاً، ثم إننى لم أطلب منها أن تفعل شيئاً لأنى أردت اختبار السلطانة، وفوجئت بها فور عودتها أو علمها بسجنى تصدر الأمر بإطلاق سراحى.. فشعرت بالغيظ من جديد.. كنت أريد أن تصر على حبسى فأهيج عليها أهلنا..

أشاح نادر بوجهه.. فقالت:

- أنا أسفة.. أنت لا تريد أن تصدقنى.. هذه السيدة الناعمة ثعبان حقيقى.. وأعصابها حديدية، بصرف النظر عن رأيك فيها.. صحيح أو غير صحيح.. عادل أو ظالم، أنا أقدر مشاعرك التى تراكمت بسبب مجموعة من الظروف.

ساد صمت غامض.. نظر إليها وكأنه يعيد تقييمها إلى أن قالت:

- كنت نائماً فى قصرها مرة وبعثت الأشباح لإحضارك إلى فى القاعة.. هل تذكر؟

- ماذا تقولين؟.. أحدث هذا؟

- نعم..

- وهل جلسنا معاً؟.. وماذا جرى بيننا؟

أنا لا أذكر هذا مطلقاً.. أنت مجنونة.. مؤكد مجنونة..

– قبل أن تصل إلى القاعة بأمتار قليلة لحق بك جنود السلطانة وأعادوك.

– متى كان ذلك؟

– بعد ذهابك إلى قصرها بثلاثة أيام فيما أظن.. ألا تتذكر هذا الموقف؟

– لا.. لكننى أتذكر أن باسال قال لى فى أحد الأيام، لقد رآك الحراس وأنت تسير فى الليل وحدك وأنت نائم، وأنهم أعادوك بعد أن شكوا فى حالتك.

أحس نادر بالبرودة ووقف شعر جسده.. حاول أن يتصور نفسه ماشياً من القصر إلى بيت دامى وهو نائم دون أن يرى الحراس الأشباح الذين اصطحبوه.

– هل كنت ماشياً، أم تحملنى أشباحك؟

– أشباحى نفذوا إلى رأسك وقالوا لك مثلاً.. هيا معنا.. أبوك يود أن يراك الآن أو أخوك سيتزوج ويريدك أن تكون معه.. وتصدح من حولك الموسيقى وتقرع الطبول وترى أخاك فى ثوب العرس وإلى جانبه عروسه والناس يرقصون ويغنون، وقد تسمعه يقول: إن «نادر» لم يحضر حتى الآن.. اذهبوا إليه وادعوه يحضر على عجل.

كان نادر يود فى البداية أن ينام ولو ساعتين حتى يستعيد حيويته وقدرته على التجديف، لكنه الآن مع صعود الشمس وحكايات الأشباح التى روضتها دامى.. ونفذت بها العديد من العمليات المثيرة، لم يعد بحاجة إلى النوم.. اعتدل فى جلسته.. قام ففك الحبل واختلج الماء مع حركة الزورق الذى أصبح حراً.

قال لها وهو يقبض على المجاديف:

– هيا بنا.. سنكمل رحلتنا.. وأمل أن نقطع مسافة كبيرة، فقد يتنبه رجال السلطانة لغيابى، ويفتقدك أهلك ويدفعون من يقتفى أثرنا..

– لم تنم ولو ساعة.

– لم أعد بحاجة إليه الآن.. البركة فيك..

اندفع نادر بقوة يجدف، وقامت دامي لتعد له الشاى وهى تقول:

– لم تتح لك الفرصة كي تحكى لى عما فعله معك خطاب السلطانة..

– ياه.. خطاب السلطانة.. لم يتركونى يوماً واحداً دون عراك.. هجوم وراء هجوم.. وكلما صحوت فى الفجر أجدهم فى انتظارى، لكننى قاومت قدر استطاعتى.. أنت تعرفين طبعاً خطابها.

– طبعاً أعرفهم إلا اثنين فأعرف أهلهما، لكننى لا أذكر أننى رأيتهما.. ومعظمهم من عائلات كبيرة، ولم يكن من هاجموك ينتمون للجميع، فمنهم شبان طيبون آثروا الانتظار، ولا أحسب أنهم يقدمون على إلحاق الأذى بأحد حتى لو كان خصمهم.

– أنا بالفعل كنت أود أن أسرع بالعودة إلى بلدى، لكن أعمال رجالهم معى دفعتنى للفرار، فما كان من الممكن أن أتقبل هذا الوضع أو أتحمله.

– لكنك لازلت حيا برغم ما فعلوه بك.

– وهل كنت تودين موتى؟

– لا أقصد، لكنك أخفيت عنى ما حدث بالتفصيل.

– لم تتح الفرصة كما قلت.

– والآن الفرصة متاحة.

– فى مرة فاجأونى ولفوا حولى حبلاً طويلاً واجتمعوا علىّ وألقونى فى النهر.

– ومن أنقذك؟

– بعد أن غصت وكدت أبلغ القاع سبحت وسبحت تحت الماء حتى ابتعدت عنهم وطفوت على سطح الماء.

– كيف تسبح وكان مغشياً عليك ومضروباً بخشبة كبيرة.؟ لقد أنقذتك

أشباحي ياصديقي..

– لم أر أحداً.

– وهل يمكنك أن ترى الأشباح؟

– وكيف عرفوا بالمعركة بيني وبين رجال خطاب السلطانة خاصة أنها حدثت في الفجر؟

– يانادر.. أشباحي لم تتركك لحظة منذ ذهبت إلى السلطانة، ولكي أكون صادقة.. فقد كلفتهم بمتابعتك وحراستك فور أن تخرج من القصر.

– أحقاً ما تقولين؟

– كل الحق.

– وهكذا عرفت إذن بوجودي في المتحف مع باسال.

– نعم.

– غريبة.. أحداث كثيرة وغريبة.. تدفعني لتصديق حكاية الأشباح.

– أقول لك ما يدهشك؟

– هل هناك مالم يقل ومالم يدهشني؟

– قبل ساعات كنت في معركة..

– متى؟

– فجر اليوم.. في نفس موعد لقاءنا.

– آه.

– هل تأكدت الآن؟

– ومتى أبلغوك؟

– بعد أن استدرجوك إلى الغابة ووجهوك إلى الشرك الذي أنقذك من مطارديك الذين زادوا على عشرين.

– دامي.

– هل رأيت الآن كم أحبك؟!

تنهدت وترقرقت في عينيها الدموع وهي تتطلع إلى نادر وتقدم له قلبها خلال نظراتها.

احتشدت روح نادر بالامتنان لدامي التي لا حد لحبها وإخلاصها له، وعمق مشاعرها والعديد من المواقف التي أنقذته من موت محقق..

لقد أعطت الكثير ولم تكن تبغي إلا أن يكون رجلها حتى لو فقدت كل شيء.

توقف عن التجديف... لقد تعمقت في قلبه مشاعر الحب لدامي كإنسانة محبة، لا ترى إلا الحب، بل إنها لاترى الحبيب إلا أنه تجسيد للحب.

عاد يجدف دون أن يرفع عينيه عنها، ثم تذكر سؤاله الأول الذي فتح كل هذه الآفاق الفسيحة.. سألها بنبرة هادئة وحنون..

– لماذا لم تكلفي الأشباح الطيبين بأن يجدفوا بدلاً مني، أو يدفعوا القارب في مواجهة التيار؟

– كنت قد قررت أن أرضي أبي بإطلاق سلاح الأشباح حتى لا يعرف ويغضب عليّ، ولكي يدخل بيته ويزور أمي كثيراً ودون عوائق ومن ثم تسترد أمي صحتها لأنها لا تكف عن البكاء منذ فارقها.. تراه الرجل الوحيد في العالم.. كان باتيه حنوناً للغاية وطيباً حكيماً ونال احترام الجميع عن جدارة.. لذلك قررت أن أطلقهم بعد أن نستقل الزورق، ألم ترني وأنا أحييهم وأودعهم قبل أن أضع قدمي في الزورق.. أنت سبقتني إليه ولم تشعر بهم وهم يقصون على أخبار المعركة الأخيرة.

– حسبتك تودعين البلد.

– لا.. للأسف.. لم أودع أحداً، كان عليّ أن أصحبك دون خبر، لأن الجميع سيرفضون بشدة ويقاومونني.. سوف انتهز أقرب فرصة لإبلاغهم وطلب عفوهم ورضاهم، خاصة أبي.

سكتت لحظة ثم قالت فجأة:

– لقد نسيت أن أحضر الصورة التى رسمتها لك.

– صورة لى أنا.

– نعم.. رسمتها لك من الذاكرة بعد عدت من السجن.. كنت أنزل إلى القاعة وأجلس فى انتظارك.. وأتسلى بالرسم.

– أتحبين الرسم؟

– نعم.. رسمت صورة لأبى وصورة لأمى معلقتين فى البيت.

– جميل.. سوف أوفر لك كل ما يلزمك للرسم عندما نصل بالسلامة إلى بلدنا.. هناك مراكز وجمعيات لرعاية الفنانين ومنحهم جوائز وتقيم لهم معارض.. وأنا لى صديق رسام كبير سأسلمه أمرك وسيكون لك شأن إذا كنت موهوبة.

أضاءت وجهها الفرحة..

– حقاً يانادر.

– هذا حقك يادامى.. شرط أن تكونى موهوبة ولا يكون رسمك مجرد شخبطة.

– سوف ترى.

– هيا ارسمى الآن.

– أين وكيف؟

– على الماء.

ضحكت وقامت فقشرت إصبع موز وقدمته له وقشرت آخر.. أشار لها مكتفياً.

(١٥)

عند العصر رأى نادر أنه أصبح غير قادر تماماً على التجديف، وأحس بجسمه يتحلل ويتهاوى.. ترك موقعه وانتقل إلى منطقة مريحة وسط الزورق.. أراح رأسه على بطانية، وتمدد، وسرعان ما غرق في سباق عميق حتى تعالي غطيطه، بعد لحظات دفست دامي جسدها في جسده وتغطت معه، استسلمت لنوم هادىء لذيذ لا يهدده شيء.

النسمات الرقيقة الناعمة تمسد الجسدين المجهدين وتربت عليهما فتتخدر الأعصاب وتغوص في أبار النوم.

عندما هيمن المساء تماماً على الأرض والسماء، هب نادر دون أن يعرف كم قطع في رحلة النوم، وفي أي مرحلة من مراحل الليل هو الآن..

أراح رأس دامي وتسرب من تحتها.. وانتقل إلى موقع القيادة.. لف رأسه بوشاح دامي وانطلق يجدف.. المياه هادئة نسبياً. ضربة المجداف الواحدة تنقل الزورق أمتاراً.. داعبه الأمل الجميل.. يكفي أن تخف تيارات الماء العفية حتى يأمل في رحلة موفقة.

أفاقت دامي وأسرعت تعد الشاي وتقدم له الكعك.. قالت له:

– أود أن أجدف بدلاً منك.. أو على الأقل أجدف معك.

قال لها وهو يحدق في الظلام الشفيف:

– عندما أتعب.. عليَّ الآن أن أعوض ما فاتنا.

كان القمر صغيراً منزوياً في ربع الشهر الأخير، متأهباً للأفول مجتهداً أن يجود ببعض النور الرمادي.. لم تكن الرؤية ممكنة مع هذا النور

الشاحب، لكنه مع ذلك جعل نادر يستشعر الونس. ذبالة القمر كانت كفيلة أن تساعد دامي على القيام ببعض الأعمال الزورقية مثل ترتيب الفراش وغسل الأكواب والأطباق والفاكهة أو فتح علب الطعام.

فرحة غامضة تتراقص في قلبها. مع هذا الرجل القوى الوسيم تمضي.. سلمت له نفسها واثقة من طيبته. ومادام قد وافق على الهرب معها فلن يرفض الزواج بها.. لا بأس أن تعيش مع أهله أيا كانوا، وسوف يحكي لهم ولاشك كيف أنها حافظت على حياته وأنقذته من الموت عدة مرات..

عاهدت نفسها أن تكون في خدمته وألا تعصى له أمراً، وأن تنجب.

لن تنسى نيامي، سوف تنتهز أقرب فرصة لتبعث بمن يخبر أهلها بأحوالها ويطمئنهم عليها.

– سوف تساورهم الشكوك والظنون، وسوف يقلبون الأرض بحثاً عني، سوف ينتهي الأمر بأن يواجهوا الحقيقة ويتصوروا بالضبط ما جرى.

سألها نادر: هل يمكن أن تعرفي في أى وقت من الليل نحن الآن؟

قالت – في منتصف الليل تقريباً.. عندما تكون هذه النجمة التى فى الغرب بهذا الارتفاع فى هذا الوقت من السنة فإننا في منتصف الليل.. ويؤكد ذلك سقوط نجمتين كانا معها، فهو موعدهما.

عند الفجر ثقلت جفونه. هم أن يطلب كوباً من الشاى وفكر فى أن يوقف الزورق ساعة، ويصعد إلى الشاطىء ليجرى قليلاً ويمارس تدريباته ليستعيد بعض النشاط، ويذيب تكلس أعضائه التي جمدها البرد، لكنه لم يتحمس لهذا ولا لذاك وفضل النوم.

اندفست دامي معه تحت البطانية.. كانت أقصى متعتها أن تتنفس دفء رجولته وتعانق جسده فتشعر بالأمان وتسقي شجرة حبها، لا تنسى أن تقبله فى أى موضع تقع فوقه شفتاها، ولا تنسى أن تطلب من سيدة الأحلام أن تزورها وتعرض عليها ماتشاء، وترجوها أن تبذل كل جهدها لتحول بين

هجوم الكوابيس.. يمكن أن تتحمل أى شيء إلا ما تفعله بها الكوابيس التى تعودت أن تداهمها بلا رحمة.

استجابت سيدة الأحلام لدعوات دامى وأمانيها، وبعثت إليها بحلم صغير جميل ومتقطع وإن شابه القليل من الغموض، وقبل أن ينتهى النهاية السعيدة التى تتمناها دامى لكى ترضى عن سيدة الأحلام نبح كلب بشدة.. كان كلباً ضخماً له نباح مخيف ومزعج للغاية ولم يكن له دور فى الحلم، كانت دامى مندهشة لهذا الصوت الذى أفسد عليها حلمها.. وزلزل النباح أعماقها فاستيقظت، وميزت الصوت الذى كان فعلاً لكلب يقف على الشاطيء ويمد خطمه نحوهما..

خشيت أن يلفت أنظار أهل المكان إليهما، فهزت نادر الذى هب فوراً وحل الحبل وأخذ مغمض العينين وبهدوء يجدف ليبتعد الزورق عن الكلب.

الشمس تبدو كأنها لم تشرق اليوم.. الضباب كثيف والسماء غامضة.. ليست هناك صورة محددة لغيوم تتجمع.. الأفق جميعه رمادى يشمله الضباب، والبرد يشتد ويقرص.. التفت دامى ببطانية ثقيلة من الصوف بنية اللون فى وسطها بقعة بيضاء كبيرة.

تذكر نادر بطانيته والنمر المطبوع عليها.. عرضت عليه دامى أن يلتف بالبطانية الصغيرة.. رفض..

حركة ذراعيه مع المجاديف تحرك الدم فى عروقه.. لاحظت دامى أنه صامت وشارد، كان رأسه يبحر فى اتجاه آخر.

انقضت عدة أسابيع على هذه الرحلة المشئومة التى أراد له الله أخيراً أن ينجو من محطاتها القاتلة، وهناك بقية لكن المتوقع أن تكون مخاطرها محدودة بالمقارنة بما فات.

عاد يفكر للمرة الرابعة أو الخامسة فى الأهل كأنه اكتشف عدم ورودهم على خاطره إطلاقاً، فأقبل يفكر فيهم من جديد، ويحاول تصور ظنونهم التى

عصفت بهم ومازالت.

- هل تصوروا أنني سافرت سراً أو اختطفني الجن أو غرقت في الفيضان أو.. أو.. الأهم من هذا. ماذا أقول لهم عن دامي؟ ليس المهم ماذا أقول عنها.. المهم ماذا سأفعل بها، وكيف ستعيش بيننا؟

استعرض مواقفها معه واهتمامها البالغ به، وحبها المؤكد له وثقتها فيه، حتى أنها تركت كل شيء من أجل صحبته والتيسير عليه، هي صاحبة الفضل الأول في عودته وبدونها لم يكن ثمة أمل.. سوف يتزوجها وليتقبل الجميع الأمر.. لن يتخلى عنها.. لو ردها لأهلها ستموت.. مؤكد ستموت من الحسرة والهوان وبشاعة الصدمة.. سيرفض الأهل وبالذات سهاد لكن عندما يعلمون بتضحياتها وأنها الشخص الوحيد الذي أعاده إليهم، فسوف يفقد الرفض هياجه وثورته.. وبالونة الغضب لابد تهبط كثيراً إلى أن يرى الله في الأمر ما يراه..

مضت الأفكار تضربه بمجاديفها بينما كان يضرب الماء بقوة متعجلاً الوصول إلى أهله لإنهاء وساوسهم، وإنقاذ قلوبهم من هجمة الأحزان التي تنهشها منذ ذلك النهار الذي طلع عليهم بدونه.

أعاد طرح موضوع زواجه من دامي.. ناقشه من جميع الزوايا ولم يجد مفراً من ذلك. حاول تصور ما يمكن أن يطفو من مشكلات، وما ينتجه حاصل جمع زوجتين في بيت واحد.. وهو بالقطع بيت واحد.. سيدته بالقطع سهاد.. لكنها سوف تنزعج من حب دامي له.. الحب العارم الذي لا حدود لعطائه. حب هو الحياة والموت لها.. فلا أهل ولا وطن.. نادر هو كل الدنيا بمن فيها ومافيها.. هو السماء والأرض والأنهار.. هو الماء والهواء.. هو الروح والجسد.. هو النور والأمل.. هو الأمس والغد. إنها ممتلئة به وهو يعلم ذلك ولن تتركه إلا بالموت، والموت الآن لا يخطر بفكرها مطلقاً.

الأيام القادمة العامرة بالحب هي التي تتجول بأعماقها وهي التي تحتل

كل فكرها وتتمنى ألا تتعرض للمهانة الثقيلة التى تجعلها تندم على التعلق به قلباً وعشرة.. ومع ذلك فهى مستعدة لأن تكون حذاءه الذى يرتديه فى قدميه، ويجب أن يكون مريحاً له ولا يشكو الضغط عليه وسحق ملامحه فى حصى الأرض وترابها.

فوجىء بخاطر يدهمه.. بقدر حرصه أن يتعلم لغتها لم يحاول أن يعلمها لغته.. ربما لأن العلاقة بينهما انقطعت ولم يكن ثمة أمل فى أن تستمر.. الوضع الآن اختلف.. سوف يحاول خلال المدة المتبقية أن يعلمها أكبر عدد من الكلمات العربية..

طلب منها أن تعد له كوباً من الشاى.. الجو يزداد برودة وغموضاً.. السماء تهبط وقد ازدادت غيومها الضبابية.. الأفق يضيق، دامى تقترب منه.. انحنت فقبلت ظاهر يده مرتين، تمسحت بخديها فيها.. دعته كى يرتاح.

كان نهدها المترع يجتهد كى ينبثق من فتحة الثوب ويرمى على رفيق الرحلة وهج الأنثى وشهدها.. يهتز القارب ويهتز.. استجاب لها.. دنت منه وقبلته فى خده.. دفست رأسها فى صدره وهى تقول:

- دراو شيمى..

قال لها: قولى: الجو برد.. قالت مثل ما قاله وكررته.. الجو برد وقال هو: دراو شيمى،

أحاطها بذراعه فرقص قلبها وتوالت خفقاته.. شعر نادر بنبضات جسدها الدافىء.. رفعت إليه وجهها.. أطل فيه.. بدا أجمل كثيراً من ذى قبل وكانت فى ضوء الكون وتحت السماء أصفى وأكثر إشراقاً مما كانت عليه فى لقاءاتهما الدائمة بالقاعة المهجورة.. المعتمة والرطبة. فهل هو النور الكونى المطلق والأفق الفسيح، أم الحب، أم الراحة النفسية، أم هو الأمل فى أيام سعيدة؟

تلقى دعوة شفتيها المكتنزتين.. حملق فيهما باشتهاء.. انحنى وقبلها.. أمسكت به.. احتواها بذراعيه فاختفت فى صدره ومرغت فيه شعرها.. تمنت ألا تغادر هذا الموضع أبداً إلا إلى القبر.

ضربت المياه جوانب الزورق التائه.. توالت الضربات فاهتز.. لم يشعر نادر بهياج الماء واحتشاده بالموج.. كان ينصت لدبيب اللذة التى تؤجج نارها قبلات دامى المستهامة.. سطح الماء يتقلب وينفعل بصورة غير التى كان عليها.. سال رحيق الشفتين فى فيه.. انتشى وتوتر وامتلأ.. القارب يهتز.. استوى نادر وانتفض.. كان بدنه قد أعلن من جديد عن شوقه للنساء، اعتصر البنية ضئيلة الحجم فذابت وأوشكت أن تفقد الوعى.. السلم الشبقى يتعالى إيقاعه وإذا كانت آلاته الوترية تهمس بنعومة فى روع الأحباب فقد كانت الطبول تقرع بثقة جدران الأجساب المتوحدة.

هب نادر وحمل دامى التى تشبه قطعة من الحلوى الطرية.. بلغته أصداء جسدها المشبوب.. حطها بعيداً عن مرابط المجاديف حيث كان قاع الزورق فى انتظارهما ممهداً وجاهزاً..

القارب يهتز بشدة وهو يواصل تقبيل الشفاه المارقة واعتصار الثديين المراوغين.. لم يشعر بمثل تلك الحالة لا مع سهاد ولا مع السلطانة ولا مع دامى.. جسده كله يشارك فى إعداد الوليمة الشهية.. فرق كبير بين حالته عندما سار فى نفس الطريق نحو المصير المجهول الذى اندفع إليه وحيداً ومرغماً على معانقه الخطر محروماً من كل شىء حتى من فتات الأمل.. الآن يعود فى زورق باختياره بوصفه أفضل وسيلة نقل فى العالم، تلك التى لها الحق فى أن تحمله إلى وطنه ممتعاً بالحياة، ومعه حبيبة وهاهو الآن يتذوق رحيقها الكوثرى وقد طمأنته حالته الجنسية الهادرة.. كل ذرة فى جسده تطلب بحماس ولهفة أن تتقدم نحو جبال اللذة، وأن تقتنص نصيبها منها.. لغة جديدة تتمتم بها أعصابه وعضلاته.

وسد دامي المتعلقة برقبته والتي توشك أن تودع الحياة راضية وهي بين أحضانه.. مسد بيده جسدها في هدوء ودعة برغم اهتزاز الزورق محاولاً كبح جماح العاصفة التي تثور في بدنه الهائج، لكنه لم يستطع مع الاضطرام المتفجر في أعضائه وحواسه.

مد يده ليرفع ثيابها.. وقعت عيناه على مشارف الفخذين.. سبقته يداها فخلعت سروالها الطويل المرقط بالورود الصغيرة الحمراء.

دهش نادر للجسد الذى اختفت سمرته وغلب عليه لون طمى الجبل، بنى فاتح تغلبه حمرة ويفيض بالوهج.. لما هم بخلع سرواله.. كانا معاً في ضربة واحدة خارج الزورق، وعاشا لحظات فيما يشبه الإغماء وهما يخوضان فى حلكة الماء الهائج، ويضربان الأذرع بشكل عشوائى بلا بصر ولا بصيرة.

علا الموج وهاج الماء، والرفيقان غافلان عما يحدث خارج جسديهما.. اختفى الكون كله من الوجود.. لا سماء ولا ماء.. لا زورق ولا مجاديف.. دوامة الرغبة الجامحة ابتلعت الشابين الذين استدرجهما العشق، وكلاهما له حكاية عذاب وقصة طويلة مع الحرمان.

انقلب الزورق في حركة غدر غير مسبوقة ولم يجر التمهيد لها، ومن المؤكد أن التمهيد قد تقدمته بشائر وإرهاصات لكن الدوامة الغريزية فعلت فعلها، حولت الموقف إلى مفاجأة.

تملكت نادر حيرة قدرية من النوع الثقيل.. عليه أن ينقذ دامي، وعليه في الوقت نفسه أن يعد لها القارب ليحملها إليه، وإبان محاولته إعادة القارب إلى وضعه الطبيعي ربما تغوص دامي، ومع ذلك ظل قابضاً على حبل القارب الذى كانت المياه تدفعه بقسوة على أمل أن تسوقه أمامها وتخلفهما وحدهما يواصلان العناق.

توالت ضربات الأمواج العالية وتزايد الماء المتدفق وشرخ صفحة السماء بريق.. دوى رعد شديد.. ضاق الأفق وأظلمت الدنيا وبدت كغرفة سقفها

يزداد سواداً كلما مر الوقت.

أدرك نادر أن اليوم يشهد نفس ما حدث في الليلة التعسة.. الليلة التي بدأت بها رحلة المرتبة.. في المرة الماضية كان غافلاً بسبب النوم واليوم، مستيقظاً، لكن المفاجأة تمت أيضاً وهو لا يملك حيلة، مع ذلك أيقن أن الوضع مختلف، وأن الخطر ليس بذات الدرجة السابقة وليس بنفس الغموض والرعب.

أخيراً عدل القارب وتمكن بعد جهد من استنقاذ دامي التي بدت في حالة سيئة ومرعوبة أكثر من اللازم، لعلها المرة الأولى في حياتها التي تهبط فيها إلى الماء.. كانت مضطربة جداً، تتشبث به بشدة حتى لتعوق حركته بينما كان يحملها إلى الزورق إلى أن وضعها فيه.

ذعر عندما اكتشف أن أحد المجدافين قد سقط من الزورق ويبعد عنه عدة أمتار، أسرع إليه وأمسك به وتحول إلى الزورق الذي ضربته المياه فابتعد.. سبح نادر بسرعة نحوه وقد وضع المجداف بالعرض تحت صدره وأبقى ذراعيه حرتين.. انطلق خلف الزورق ودامي تصرخ وتشجع وتبكي وتكاد تلقي بنفسها مرة أخرى، قال لها: اصبري.. أنا قادم.

هاجت المياه بشكل مباغت ودفعت الزورق أمتاراً بعيدة وأصر نادر على اللحاق به محتفظاً بالمجداف بين صدره وبطنه.. التفت خلفه فرأى الماء يهجم كالجبل الضخم عالياً ومهيباً فابتلع الزورق وغاص نادر.

لم تتح لنادر فرصة ليتأمل هذا النهر المجنون وهذه السيول التي لم تحدث منذ سنوات. عندما طفا من جديد طارداً الماء من صفحة وجهه باحثاً عن الزورق.. أصابه الإحباط الشديد، فقد كان الزورق بعيداً جداً ولا يمكنه مهما فعل أن يلحق به.. كانت دامي تبتعد بسرعة ولا تزال تصرخ وتلوح والموج يرفع الزورق ويخفضه كالفرس الجامح الذي لا يقر له قرار، ولا يملك أمهر الفرسان القدرة للسيطرة عليه.

كان الموقف تعساً للغاية، وشعر نادر وهو ينظر بحسرة إلي الزورق الذي أصبح كنقطة فوق الماء المتلاطم أنه يود لو يبكي.. أحس ببرودة شديدة تهزه من أعماقه.. وقف في الماء يضربها بساقيه فقط ليحتفظ بطفوه.. غارقاً في الأسي، مشفقاً علي دامي من المصير الذي يمكن أن تلقاه. ثم تحرك سابحاً في اتجاه الشاطيء، وقد أدرك مؤخراً أنها منطقة شلالات.

عاد يحدق في الأفق البعيد، لم تلمح عيناه شيئاً قط.. ارتمى في مكانه وتمدد، لام نفسه لأنه هو السبب، ماكان عليه أن يتجاهل ثورة المياه، وكان عليه أن يستشعر الخطر، والقارب يتقلب فوق الموج وثباته يتأثر تدريجياً بشكل لافت.

لم يكن يتوقع ما جرى، ذنب الفتاة الطيبة في رقبته.. مضى يدعو الله أن يحفظها وأن تبلغ نيامي بسلام.. أو ينجرف القارب بها إلى أي أرض وفي أقرب وقت..

لم يطرق النوم بابه.. ظل مستيقظاً شاعراً بالسخط علي نفسه لما يمكن أن يصيب دامي.. الإنسانة التي أحبته كما لم يحبه شخص أخر.. خالجه يقين بأن وقتاً طويلاً سيمر قبل أن ينسى دامي وما فعلته من أجله.

كانت قيعان قلبه مثقلة بفراغات حزن كثيف.

تنفس بعمق وسكت حتى حدثته نفسه:

- الإنسان أينما كان طاقة روحية هائلة تستطيع أن تحقق ما تعجز عنه أعتى القوى.. أليس هذا الإنسان بقادر علي أن يحرك الجبال ويأسر الأسود والأفيال ويصيد الحيتان ويغير مجاري الأنهار؟!

جسمه تحلل وتفكك، لكنه بعد هذه العبارات هب فجأة وانطلق يمشي بحذاء النهر نحو بلاده التي لابد كانت تقترب.. مضى يسأل ويمشي، وقد يتفق أن يكون طريقه نفس طريق سيارة عجوز، فيحمله أصحابها معهم، وفي مرة وجد مركباً شراعية متجهة إلى بلاده، إلا أنه أبى أن يستقلها

وفضل المشى قائلاً: لقد أبحرت بما يكفي.. ولن أركب النهر الذى خطف منى دامى الغالية. ليت بالإمكان العثور على وسيلة تطمئننى عليها، بعد أن خطفها النهر منى فى حركة غدر وخيانة.. ماذا بينى وبين هذا النهر؟.. من أين له قسوة القلب؟.. أى بغض هذا الذى يحرضه ضدى فيناصبنى العداء؟.

(١٦)

ربط نادر قدميه بقطع من القماش وواصل سيره بهمة .. صعد فى طريقه جبالا وتلالا. ومر بأراض قاحلة وقرى صغيرة ومر بأودية مخضرة واجتاز برارى فسيحة وممتدة لا تكاد العين ترى لها نهاية ، إلى أن شعر بحرارة شديدة تتسلل تدريجيا إلى بطن قدميه .. تمنى أن يركن للراحة قليلا، إلا أن روحه المتلهفة على الوطن حرضته على السير وتأجيل الراحة ودعته إلى المزيد من الصبر والتحمل .. وعد نفسه أن يرتاح عند أول عمار.

كان اللهب يشتد وتمزقت الأقمشة الملتفة حول قدميه وسقطت.. سار على الحصى والرمل وفى الوحل وعلى الصخر حافيا، إلى أن توقف وثنى الساق وأطل فى بطن القدم اليمنى.. كانت قطعة متورمة من الجمر لونا وحالة .. وبها فقاقيع تنبض بالألم الشديد الذى يتردد صداه فى جسمه كله .. فكر فى أن يبحث عن حذاء أو أى شىء لينتعله ، لكنه أدرك أن حاله لم يعد ينفع معها شىء ، ولن تحميها قفازات من حديد لأن القدم نفسها تصرخ من الألم إذا لمست أى شىء .. عزم على أن يرتاح فى أى مكان .. تلفت حواليه ، فلم ير شيئا .. جلس تحت شجرة تفرش فيئها الوديع وبسط ساقيه .. الموقف صعب ولن ينقذه إلا وسيلة تحمله الآن حملا وتضعه داخل داره وبين أهله.. كان الأفق سابحا فى الصمت الحزين .. تنهد .

- أن للقدمين الشاردين أن يؤوبا لعشهما وأن يحطا الرحال فى الحضن الحبيب .. المشاعر الطيبة هناك تنتظر فى المرتع الخصيب .. فماذا يفعل الآن ؟

لو أصر على السير ، فلن يستطيع، وسوف يدمر القدمين وربما الساقين .. فليهدأ حتى يظهر الفرج وتنفك العقدة ..

بعد قليل لاحت له من بعيد فتاة ترعى الغنم .. صاح مناديا عليها .. اتجهت ببطء نحوه ، وقفت على مسافة ومعها كلب وفي يدها عصا طويلة.. يلتف حولها في وداعة نحو عشرة من الغنم .. كان العشب كبيرا حول نادر...

.. سألها إذا كان ثمة قرية قريبة أو مدينة .. أشارت بإصبعها نحو الشمال في اتجاه وطنه..

سألته. هل ترى الخيام البعيدة؟.. هذه خيامنا.

استفسر عن موضعها بالضبط، قالت إنها بعد الأشجار العالية مباشرة فكر أن يطلب منها العون بأن تذهب إليهم وتستدعي منهم أحدا يحمله بسبب عجزه عن الحركة . لكنه اعتبرها خدمة كبيرة مبالغا فيها .. شكرها وبقي كما هو مشغولا بالنار المشتعلة في قدميه .

بعد لحظات تحامل على نفسه ونهض .. حاول أن يمشي خطوة .. ثم خطوة .. ينقل قدما من موضعها ويحطها في موضع جديد بتمهل ، ولما يطمئن عليها ينقل الأخرى.. كان المنظر مضحكا .. من يملك الصبر والإرادة ليقطع هذه المسافة التي تزيد على ميلين بهذا الشكل الذي تأباه السلحفاة.

لام نفسه التي آثرت عدم طلب الخدمة من فتاة الغنم ، هاهو الآن لايكاد يتحرك من مكانه .. الشمس على وشك الغروب .

مضى ينقل قدميه ويتجاهل الألم الممض .. عيناه على الأشجار العالية بوصفها منارته حسب إشارة الفتاة ..

قبل أن يبلغ طابور الشجر جاءه رجل يركب حمارا .. حياه وطلب منه أن يركب الحمار .. أعانه على الركوب.. سار الرجل على الأرض وقد شعر بأسف شديد لحالة القدمين.. لامه لإصراره على السير.

على مشارف الأفق بقايا شفق ، شرعت تلوح له رؤوس الخيام .

كان ثمة واد خصيب يرقد بين تلين وفيه تتناثر الخيام.. ربما يتجاوز عددها العشرين.. تشكل دائرتين ، واحدة كبيرة وأخرى بداخلها صغيرة تتوسطها ساحة يجرى بها ويلهو عشرات الأطفال من البنين والبنات .

ساق الرجل الحمار الذى يحمل المصاب إلى إحدى الخيام .. وقف ونادى الشيخ بلال الذى رأى الضيف فأفسح باب الخيمة وقال :

- أدخله ياسعد ..

ساعد سعد «نادر» على الهبوط إلى الأرض وسانده حتى أدخله الخيمة.. أجلسه على كليم صوف بنى به بعض الخطوط البيضاء وله شراشيب ..

تمدد نادر .

مصباح فوق رأسه معلق فى سرة الخيمة، تحت ظهره مسند وثمة سجاجيد صوفية فى الأركان.. خلفها مساند وفى الوسط موقد به نار مشتعلة .. رحب الشيخ بلال بالضيف وأطل فى ساقيه، ثم أرسل سعد ليدعو أبوجبل الذى حضر على عجل.. شرع فى دهان قدمى نادر بمرهم ، وقال إن قدميه لن تشفى قبل ثلاثة أيام ، سيتعذر تماما السير عليها قبل ذلك .

حضر الشيخ نصر شقيق الشيخ بلال للترحيب بالضيف كما حضر عدد من الرجال حتى ضاقت بهم الخيمة، أمر الشيخ بلال ولده حرب أن يقيم مع نادر فى الخيمة ولا يتأخر عن خدمته لحظة .

بقى الرجال مع نادر إلى ما بعد العشاء بنحو ساعتين ، طالبه الشيخ بلال أن يحكى لهم شيئا عن رحلته التى عاد منها على هذه الحال من الحفاء والملابس الممزقة والجوع والإرهاق ، بلا دابة ولا مؤونة ولا رفيق .

أمر له الطبيب بالعسل واللبن والتمر ثلاث مرات على الأقل فى اليوم مع مواصلة الدهان الذى وضع عليه قبل ترك الخيمة خليطا آخر من مسحوق الأعشاب.. طالبه بعدم الحركة .. استكثر نادر الأيام الثلاثة وتمنى أن يغادر

أرضهم الكريمة فى الغد .

قال الشيخ بلال:

– كلام الطبيب سيف، حتى لو لم تكن مصابا فلك علينا ثلاثة أيام ترحيبا وضيافة .

مع الصباح الباكر استيقظ نادر وزحف بنفس وضعه مستندا إلى ذراعيه وكفيه إلى خارج الخيمة .. كانت الجمال وبعض الحمير والماعز وكافة الغنم خلف الخيام يرعون الكلأ على سفوح التلال ، وبعض النسوة يحملن الجرار ويمضين إلى النهر.. لحظات قليلة، بعدها توافد الرجال إلى نادر.. جلسوا فى حلقة تحت الشمس الوليدة، والنار بينهم يشربون القهوة ويستدفئون.. يتحدثون عن عمل اليوم وأخبار الماشية وبعض الأحلام التى تراءت للكبار .

بعد قليل تحركت الأيدى لتنجز بعض الأعمال مثل جز فراء الغنم وعلاج الماعز والحمير، تثبيت أجنحة بعض الخيام وغزل الصوف.. ذهب عدد من الشباب لصيد السمك ومعهم الأولاد.. جاء الفطور للرجال وكان لابد ألا يبدأوا طعامهم إلا بعد حضور بلال شيخ القبيلة الذى كان يطمئن بنفسه مع الطبيب على ولادة الناقة المتعسرة، لم يظهر إلا بعد أن جاء الفرج وابتسم الجميع .

أمر الشيخ بلال بإعداد عشاء جيد للضيف والرجال وتجهيز سهرة سمر طويلة بالساحة .. اشتعلت النيران ورقصت النسوة والرجال وتناولوا الطعام .. لحم لذيذ وثريد وعصيدة وفطائر وشاى عدة أدوار ، ألقى الشعراء من قصائد الفخر والمديح وضجت العربان بالهتاف بعبقرية البيان وخصوبة المواهب ، وامتلاك ناصية اللغة والصور الجميلة والخيال الذى يشبه فارس يجيد الرقص بالخيل وترويض الجامح منها .

الليل جميل والنسمات العليلة والصحبة الصافية، وجد نادر نفسه يحكى بالتفاصيل ما رآه وعاينه وعاناه .. حكى عن السلطانة ودامى والمعبد ..

عن الأشباح والطائر الساعاتي صاحب الصيحات، حدثهم عن غرق دامي في النهر وشدة السيل والموج العالي.. حدثهم عن المرتبة والبطانية ونمرها الطيب .. حكي عن الرعب لحد الموت في الذهاب والتعب لحد العجز في الإياب .

زاد ترحيب الشيخ بلال بنادر وطمأنه الطبيب على صحة قدميه.. إنهما تبرآن بسرعة وسوف يكون جاهزا للسير عليها صباح بعد الغد بمشيئة رب السماوات والأرض .. تحدث إلى نادر تقريبا كل الرجال وأعجبتهم طباعه وجذبهم حديثه، وعده أحدهم بأن يعلمه الضرب بالسيف في مقابل أن يعلمه طرق الدفاع عن النفس دون سلاح..

وجد نادر نفسه يحظى باهتمام الجميع ، فوجيء بولد يحمل إليه شالية لبن .. أرسلته أمه زوجة الشيخ عمران ، وهذا حرام صنعته بيدها ابنة الشيخ الليث ، وهذا الخنجر أهداه له الشيخ مسعود صانع السيوف ، وهذه المكحلة من زوجة ابن الشيخ بلال وهذه ثلاثة أزواج من الجوارب الصوف صنعتها زوجة الشيخ تاعب ..

بعد يومين كاملين وقبل غروب الشمس وقبل أن تنهك من مشوارها الطويل عبر النهار ، وقبل أن يشحب بياضها الناصع ويصفر .. قبل أن يصبح يسيرا على العيون أن ترى قرصها محددا وأن تحدق فيها بلا عسر ولا خوف ، ظهرت أربعة جياد شديدة القوة ، ممتلئة صحة وحيوية عليها فرسان أقل حجما من العربان معهم ورقة فيها رسم باليد لشخص يسألون عنه :

– هل مر من هنا ؟

واحد فقط يستطيع التحدث بالعربية المتعتعة والآخرون لايقدرون عليها . قال :

– إنه عربي وقد سرق جواهر ثمينة من سلطانة نيامي، ولابد من القبض

عليه وإعادته ليمثل أمام القضاء العادل .

قال سعد :

– لابد من إبلاغ الشيخ بلال .

قال الرجل :

– لاداعي للشيخ ، هل رأيت هذا الشخص الذي في الصورة ؟

قال سعد :

– الرسم غير واضح .

سأل الرجل :

– دعك من الصورة والرسم .. هل مر بكم غريب في الأيام الماضية ؟

قال سعد :

– أنا لم أر غريبا مر ، فلنسأل الشيخ بلال .. هيا بنا إليه .

توجهوا إلى الشيخ بلال .. عرفه سعد بالرجال ونزل الذي يعرف العربية عن فرسه .

قال الشيخ بلال بعد أن نظر في الرسم :

– أظن أني رأيت مثل هذه الملامح .. نعم .. مر بنا رجل بينه وبين هذه الصورة شبه .

ابتسم الفارس وظل ممسكا بمقود جواده .. واستأنف الشيخ :

– كانت معه امرأة .

تهلل الفارس وقال :

– هو .. هو .. أخيرا بعد هذه الرحلة الطويلة سمعنا لأول مرة كلمة تطمئن وتفتح باب الأمل .

قال الشيخ :

– لقد كانا في حالة سيئة، خرجا من النهر بعد أن أوشكا على الغرق .

أسرع الفارس يقول :

- شكرا .. شكرا .. وأين هما الآن ؟

هل هما معكم في هذا المعسكر ؟

قال الشيخ :

- لا .. لقد رفضا البقاء .. استراحا قليلا وأخذا بعض المؤن ثم توجها إلى هذه الناحية .

وأشار جهة التلال فى طريق متعامد على النهر وليس فى اتجاه بلاد نادر.

شكره الفارس جدا وأسرع بالقفز فوق فرسه وشرح للآخرين الوجهة وتقدمهم نحوها .

دخل الشيخ ليحكى لنادر الأخبار الجديدة .. استولت على نادر دهشة بالغة إذ تبعث السلطانة جنودها كل هذه المسافة الطويلة لاستعادته .

شكر الشيخ على حسن التصرف واللباقة وحضور البديهة .. ودهش نادر أيضا عندما حدثه الشيخ عن رسم فيه شبه كبير منه .

سأله الشيخ بلال عن مسألة المجوهرات .. ذكره نادر بما حكاه له وللرجال عن إصرار السلطانة على الزواج به ، والصدمة التى يمكن أن تكون قد تعرضت لها بعد أن اكتشفت فراره.. كانت قد تصورت استسلامه لها وقبوله البقاء معها ، فأطلقت الرجال بحجة القبض على اللص..

قال الشيخ :

- ترحيبى بك في الأصل كان قائما على تصديقى لك رغم غرابة ما قلت.

نكس نادر رأسه لحظات، ثم قال :

- يا شيخ بلال . .لسانى عاجز تماما عن شكرك واسمح لى أن أكمل رحلتى فى الصباح فقد شفيت تماما والحمد لله .

قال الشيخ وهو يضع كفه على كتف نادر:

- كنت أود أن تبقى معنا عدة أيام ، واعلم أننى لست وحدى الذى أحبك

، الجميع هنا يسعدهم بقاؤك .

– شكرا لك .. شكرا لكم جميعا وبارك الله فيكم وأسعد أيامكم .

قرر الشيخ بلال أن تقام سهرة كبيرة لوداع نادر الذى سيرحل فى الصباح .. وكان من بين فقرات البرنامج .. عرض من عروض نادر الفنية الرياضية .. حيث استعرض حركات الكونغ فو وأساليب الدفاع عن النفس بلا سلاح .

دعا بعض الشباب للتدريب معه وقام بعض الفتيان والصبية ، وتساقط البعض وأفلح البعض ، ضحك الجميع وانبهروا بأداء نادر الرائع وتمنى الشيوخ أن يدرب نادر شبابهم ، وصارحوه بالفكرة فوعدهم بالعودة إليهم بعد فترة للبقاء عدة أيام وتدريب الشباب.. لكنه الآن غير مستعد لمزيد من الغياب مهما كانت الأسباب .. توالت فقرات الليل الجميلة وقدم بعض الشباب رقصات مميزة وغريبة بالعصى والسيوف.. رقصت أيضا الفتيات بالسيوف .

أمتع الحاضرين عازف نحيل على الناى .. يقول عنه الشيخ هليل أنه لا يأكل إلا برتقالة أو كعكة كل عدة أيام .

كان عزفه مفاجأة لنادر.. غنت بعض الفتيات وزغردن وغنى الشباب وألقى الشعراء قصائد جديدة ، كانت أهمها وألطفها تلك التى نظمها الشيخ تاعب عن نادر نفسه ومغامراته ومعاناته حتى وصوله إلى خيام العرب .

طال السمر وامتد السهر وتعانقت الأرواح .

(١٧)

أصر الشيخ بلال ألا يعود نادر إلى أهله مشيا على الأقدام وإنما عليه أن يمتطى الجمل المعد فى الساحة له، وعليه الهدايا التى تسلمها بيديه فى اليومين الماضيين، والهدايا الجديدة غير ما عليه من ملابس .. شال للرأس ورداء وفوقه عباءة ونعل جديد بالإضافة إلى المؤونة اللازمة للطريق من طعام وشراب .

بقى نادر لحظات بين جميع العرب الذين وقفوا لتحيته وهو فى دهشة لما فعلوه ، ما السر فى أنهم أحبوه وأهالوا عليه كل هذا الكرم والاهتمام .. لم يعثر على الكلمات التى فرت وتناثرت وتاه معها لسانه ، ثم أخيرا شكرهم وعانقهم .

قبل أن يضع قدمه على الجمل ، طلب إلى أقرب الرجال أن يعلمه كيف يطلب من الجمل أن يصعد ، وكيف يطلب منه أن يتوقف ويهبط به إلى الأرض .. علموه وركبه مضطربا .

نهض الجمل محملا بالضيف ، ورحل معه نادر محملا بخيرات العرب وحفاوتهم عازما على أن يعود ليرد الجمل والجميل .

فى الطريق لم يستطع أن يمنع نفسه من المقارنة بين السرعة التى ذهب بها إلى أن حط فى نيامى ، والبطء الذى يعود به الآن إلى أهله .

مضى الجمل هادئا واثق الخطو فى إيقاع منتظم لايتغير .. يروح به ويجىء .. كلما رغب فى أن يتوقف للراحة ، عاد فمحى الفكرة من رأسه أملا فى أن يصل قبل الغروب ، فقد سأل بعض المارة وأدرك أنه على الطريق الصحيح ، وأنه يحتاج إلى عدة ساعات حتى يصل إلى موطنه .

زاد شعوره بالأطمئنان لأن النهر الوسيع كان لايزال ينساب بثقة تحت قدميه وهو من عل يراه عن يمينه ، أما عن يساره فقد كان ألق الظهيرة يغسل قمم التلال بالنور .

عند أعتاب المدينة كان قرص الشمس قد غاب تماما فى الأفق الغربى البعيد .

دخل الجمل الحى.. مضى بنفس طريقته الرصينة الثابتة وبتوجيه عصا نادر إلى الشارع الكبير الذى تقع فيه دارهم .. كان لايفتأ يعجب من سير الجمل المتئد الذى قطع مسافات لم يتصور أن يقطعها بهذه السرعة .. علامات الحزن هناك والسماء كابية والناس صامتو . ، البعض يحـ ـ غـبـ ، لم يروا من زمن عربيا يمتطى جملا ويجـ ـس به خلال الشوارع .. رأوا الحمير والخيل والبغال ، لكن بعضهم لايذكر أنه رأى جملا .

لمح أضواء أمام دارهم وصفوفا من الناس على أرائك ومقاعد .. آيات من القرآن يتلوها مقرىء مقتدر ذو صوت جميل كأن له وبر ، ونبرة مثيرة للشجن لا تشبع الأذن من استقبال عطاياها النبيلة ، وبلاغتها الثرية المحملة بالحكمة والحنان .

تساءل نادر الذى خفق قلبه وهو يتقدم بدابته العالية نحو الجمع ، عمن يكون قد فارق الحياة من أهله، شك أن يكون والده .

دنا بالجمل من الجالسين وتوقف يرنو إليهم ويرنو الجميع إليه .. لمح بينهم والده .. ظل واقفا لحظات إلى أن قال أحدهم :

- تفضل ياشيخ العرب .

تبعه آخرون فى دعوته . قال نادر :

- السلام عليكم .

ردوا التحية مصحوبة بالدهشة .. أناخ الأعرابى الجمل إلى جانب الحائط المقابل لجلسة العزاء ومضى يخب فى عباءته الفضفاضة .. أسرع بعض الحاضرين لاستقباله قائلين :

- شكر الله سعيك .

- غفر الله ذنبكم .

حدقوا فيه، لم يتذكر أحد أنه رأى هذا الوجه ذا الشارب الكث واللحية ، ولم يكن لهم قريب أو نسيب من سكان البادية .. أى بادية .

قال وافى ابن عم نادر :

– محتمل يكون صديقه .

قال نادر لمستقبليه محاولا تغيير لهجته لتقترب من لهجة البدو :

– البقية فى حياتكم.. أهذا بيت الأستاذ نادر أبو النجا ؟

– نعم .

–أريد أن أقابله .

فرت الدموع من عيون وافى ، دار حول نفسه ليخفيها.. هب رامى وطاهر إليه وتأملوا الأعرابى .. سألهم :

– هل المرحوم قريب نادر ؟

قفزت الدموع إلى عينى رامى ، وقال طاهر برصانة :

– تفضل يا شيخ العرب .. إجلس .. أحقا تعرف نادر ؟

– نعم .. أعرفه .. أعرفه أكثر منك .

– أنا أخوه .

– ربما يكون اسمك طاهر .

بدا التأثر على طاهر :

– هل حدثك عنى ؟

– عنكم جميعا ..

– لكنك لم تزرنا من قبل .

– لا .. هى المرة الأولى .

– أشعر أنى رأيتك من قبل .

– البادية لا تسمح لنا كثيرا بالسفر والصحراء هى كل ما نعرف .

– صدق الله العظيم .

انتهى المقرىء من تلاوته .. فسأله نادر :

– من المتوفى يا شيخ ..

– عن إذنك أودع المعزين .

أسرع طاهر يقف فى وداع المعزين وشكر مسعاهم .. غادر المجلس بعض المعزين وبقى البعض وأقبل عليه آخرون .. كلهم يتحدث عن المرحوم وطيبته وقدراته.. كان أكثرهم من الشباب .

نادى الشيخ لطاهر وسأله :

– لم تقل لى من المتوفى ؟

– اليوم ذكرى الأربعين .

– ذكرى الأربعين .. إذن رحل المرحوم من أربعين يوما .

– نعم ..

- هل كان مريضا ؟

- لا .. غرق في السيل .

- أكان كبيرا في السن ؟

- يا شيخ العرب .. الذى رحل هو نادر نفسه .

انتفض طاهر من جانبه ودخل الدار كالسهم محاولا كبح دموعه.

فوجيء الحضور بالعربي يسرع وراء طاهر ويدخل الدار .. حدث ارتباك شديد بين النساء والرجال وغضب الجميع ، فأسرع العربي يخلع الشال الصوفي الذى يلف رأسه ونزع العباءة وقال بصوت مرتفع وهو يقترب من أمه :

- أنا لم أغرق يا أمي .. أنا نادر .

شهقت الأم ثم وقعت مغشيا عليها ، كذلك أخته وسهاد وأقبل الجميع يعانقونه .. أبوه وأخوته وزملاؤه الشباب وكافة الحاضرين .

أسرع بعضهم إلى كل من في الحي والبلدة يدعو من يعرف ومن لايعرف لرؤية نادر بعد أن عاد من غربة السيل .

انطلقت الزغاريد ورقص الشباب وجاءت السيارات تحمل الأحباب والأصحاب.. أسرعت النسوة بخلع السواد وارتداء الألوان.. وصلت الدراجات البخارية.. حمل الشباب «نادر» وطافوا المدينة . فرح كامل وعرس كبير .. على عجل تحول العزاء إلى فرح .. فيه طلقات رصاص

وضحك وعناق ورقص وأغان وهتاف وشكر لله ودهشة .. ظلت الأضواء تنير المدينة حتى الصباح ليشرق يوم جديد عليها وبين أبنائها نادر ، فرحة لا تقدر تختلج في قلوب الأهل الذين لم يكفوا عن شكر الله أياما وشهورا ، بل سنوات وسنوات .

رفضت الأم ، لكن الوالد أصر على سؤال ولده في اليوم التالى عن الحال .. فقال نادر :

- عال جدا ..

- الحمد لله .. أدع إذن للشيخ ضاحى .

قال نادر وهو يبتسم .. الله يعمر بيتك ياشيخ ضاحي.

روايات الهلال تقدم

يا محمد .. يا صقرى

بقلم

الأديب التركى الكبير

يشار كمال

ترجمة

عبد الحميد فهمى الجمال

تصدر : ١٥ مايو ٢٠٠٥

أحـــــدث إصـــــدارات روايـات الـهــــــلال

العدد	اسم الرواية	المؤلف	التاريخ	الثمن الجنيه
٦٦٤	الساعات	مايكل كننجهام	إبريل ٢٠٠٤	٧,٠٠
٦٦٥	نوافذ النوافذ	جمال الغيطانى	مايو ٢٠٠٤	٥,٠٠
٦٦٦	صنعاء.. الوجه الآخر	د. إبراهيم اسحاق	يونيه ٢٠٠٤	٦,٠٠
٦٦٧	أيام القبوطى	سهام بيومى	يوليو ٢٠٠٤	٨,٠٠
٦٦٨	ربيع حار	سحر خليفة	أغسطس ٢٠٠٤	٨,٠٠
٦٦٩	الخالدية	محمد البساطى	سبتمبر ٢٠٠٤	٦,٠٠
٦٧٠	الرواية	د. نوال السعداوى	أكتوبر ٢٠٠٤	٦,٠٠
٦٧١	مواعيد الذهاب إلى آخر الزمان	عبده جبير	نوفمبر ٢٠٠٤	٦,٠٠
٦٧٢	قمر على سمرقند	محمد المنسى قنديل	ديسمبر ٢٠٠٤	٨,٠٠
٦٧٣	غواية الإسكندر	محمد جبريل	يناير ٢٠٠٥	٦,٠٠
٦٧٤	عاشق الحى	يوسف أبو رية	فبراير ٢٠٠٥	٦,٠٠
٦٧٥	يا قلبى لا تحزن	منال القاضى	مارس ٢٠٠٥	٥,٠٠

رقم الإيداع : ٢٠٠٥/٤٩١٠
I.S.B.N
977- 07- 1114-4



فؤاد قنديل

- ولد بالقاهرة عام ١٩٤٤.
- ينتمي لأسرة من مدينة بنها
- حصل على ليسانس الفلسفة وعلم النفس عام ١٩٦٩
- عمل باستديو مصر منذ عام ١٩٦٢ ثم مؤسسة السينما حتى عام ١٩٧٨ وانتقل للعمل بالثقافة الجماهيرية
- صدرت له ثماني مجموعات قصصية، منها: العجز، عسل الشمس، الغندورة، زهرة البستان.

وثلاث عشرة رواية، منها: السقف، الناب الأزرق، عصر واوا، روح محبات، حكمة العائلة المجنونة وقبلة الحياة.

وثماني دراسات منها: أدب الرحلة في التراث العربي وفن كتابة القصة.

- حاز على جائزة نجيب محفوظ للرواية في الوطن العربي عام ١٩٩٤.

هذه الرواية

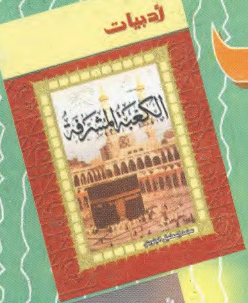
تنقض السيول على القرية القابعة بين الجبل والبحر.. تختطف «نادر» وتحمله إلى بلاد بعيدة، حيث تتلقفه امرأة تبحث عن الحب.. فتمتلكه وتحاصره.. لكن الأشباح تحيطه والسحرَ يناوشه، ومفردات العالم المدهش تأسره.. يكتشف كهنة المعبد وجود الغريب.. تنطلق المطاردة حتى يقع في أسر السلطانة.. تصر على بقائه.. يجتذبه عالمها الملكي إذ ترفعه على عرش قلبها، وتبهره قدرتها على إدارة شئون الحكم بكياسة وفروسية.. لكنه مسكون أبدا بالحنين إلى الوطن، الذي يقاسي كثيرا حتى يعانق أرضه.

هل كانت الرحلة محاولة من الرب لتطهيره ومنحه شهادة ميلاد جديدة.. نحن أحيانا لا نفهم لغة الرب التي تحتاج إلى تأمل عقلي وروحي وليس إلى ترجمة.

«أبقى الباب مفتوحا» محطة مهمة على درب الإبداع الروائي للكاتب المولع بالفانتازيا والخيال المجنح.

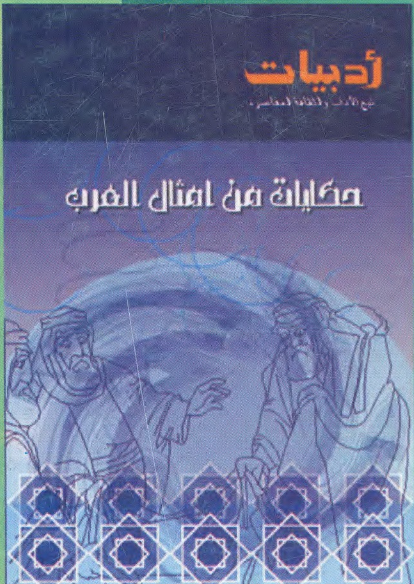
أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة









طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع : ٨، ١٠ شارع المنطـ
الصناعية بالعباسية - منافذ البيع : ١٠، ١٦ شارع كامل صدقى الفجالة - ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى
روكسى مصر الجديدة - القاهرة ت : ٦٨٢٣٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ . فاكس : ٢٠٢/٢٥٩٦٦٥٠ ج.م.ع -
٤ شارع بدوى محرم بك - الاسكندرية .